فتوحات إسلامية

رؤية معاصرة

أ. د. خالد فهمي

اسم الكتاب: فتوحات إسلامية.. رؤية معاصرة
التأليف: أ.د. خالد فهمي
موضوع الكتاب: دراسة إسلامية
عدد الصفحات: 80
عدد الملازم: 5 ملزمة
مقاس الكتاب: 20 x 14
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2106 / 15242
الترقيم الدولي: 2 - 558 - 278 - 977 - 978

١٤٣٨هـ
٢٠١٧م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى عاصم علاء زعزوع

وعمر مصطفى أبو طاحون

وفكري الأدهم

ومدحت ماهر الليثي

وهيثم زهدي

رموزًا من أطهر هذا الجيل

المقدمة

«اللهم لك الحمد كله، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول، ولا يزول. اللهم إني أسألك الأمان يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر، والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا، ولا مفتونين.

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون بيوم الدين، ويكذبون برسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك، وعذابك الحق.. الحق. آمين»

[من حديث رفاعة بن رافع- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ يوم أحد، في: تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، ﷺ، للشوكاني، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص٢٣٦].

وبعد فهذه تجربة جديدة من جانب، وعريقة موصولة بتراث عريق قديم في تراث العرب المسلمين من جانب آخر.

أما أنها تجربة مسبوقة، موصولة بتراث عريق في المعرفة عند المسلمين فظاهر من سوابق في التأليف العلمي في هذه الحضارة في بابها وميدانها تجلى في مسارين واضحين هما:

أولًا: مسار التأليف في فتوحات البلدان، ورصدها، والكلام عن دوافعها، وأحداثها، وما كان فيها، ما بذله المجاهدون فيها من تضحيات وبذل، وما تحلَّوا به من بطولات، وما كشفوا عنه من أخلاق راقية، وإيمانيات سامية، باذخة.

وقد جاءت مجموعة من مصنفات الفتوحات في التاريخ العلمي في هذه الحضارة، توزعت على نوعين:

أ. الفتوحات العامة التي تؤرخ لفتوح البلدان بشكل عام، مثل: فتوح البلدان، للبلاذري سنة ٢٨٧هـ وفتوح الأمصار، للواقدي، سنة ٢٠٧ هـ والاكتفا في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا للكلاعي سنة ٦٣٤هـ.

ب. الفتوحات الخاصة التي تؤرخ لفتوح بلد أو منطقة بعينها، مثل: فتوحات الشام، للواقدي، ٢٠٧هـ وفتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم القريشي المصري ٢٥٧هـ.

وهذه الأدبيات العامة تبدأ تأريخها من زمان النبوة الكريم بسرد أحداث المغازي والبعوث، والسرايا التي جهزها وسيرها وقادها سيدنا النبي ﷺ.

ثانيًا: مسار التأليف في الجهاد والحث عليه وأحكامه، وفضائله، وتراتيبه، وآلاته، وقد تنوع التأليف في هذا الباب واتخذ مسارات معلنة ظاهرة هي:

أ. التأليف بصورة مختلطة بكتب الفقه، فهو باب من أبواب المدونات الفقهية الكبرى والصغرى، يعرف بباب الجهاد وأحكامه.

ب. التأليف فيه بصورة مستقلة، تجمع الأحاديث الواردة فيه، وتصنفها تصنيفًا داخليًّا موضوعيًّا يكشف عن فضله، وأحكامه، وآدابه، ومحرماته، الخ. من مثل: الجهاد لابن أبي عاصم، ٢٨٧هـ، والجهاد لأبي الحسن السلمي، سنة ٥٠٠هـ، وأربعون حديثًا في الحض على الجهاد، لابن عساكر، ٥٧١هـ، وأربعون حديثًا في فضل الجهاد والمجاهدين، لأبي الفرج الواسطي، ق٦ هـ، والاجتهاد في طلب الجهاد، لابن كثير، ٧٧٤هـ.

وقد استمر التأليف فيه في العصر الحديث، فظهرت كتابات تحمل هذا العنوان، لعدد كبير من المعاصرين على اختلاف اختصاصاتهم العلمية، مثل: الجهاد للمودودي، وحسن البنا، وسيد قطب (طبع سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م) والجهاد لأحمد الحوفي(١٣٨٩هـ=١٩٧٠م) ويوسف القرضاوي (٢٠٠٩م) [انظر قائمة مطولة بما كتب في هذا الباب في مقدمة تحقيق عبد الله عبد الرحيم

عسيلان، لكتابه الاجتهاد في طلب الجهاد، لابن كثير الدمشقي ٧٧٤هـ (ص ٣٩-٤٦)].

ج. التأليف في فنونه وآلاته، وتراتيبه، وخططه وهي مصنفات موزعة على أبواب معرفية كثيرة تتناول علم الحرب والعسكرية في الحضارة الإسلامية.

وقد كان ذلك المنجز العلمي الممتد العريق استجابة لأوامر شرعية ثابتة في الكتاب العزيز والسنة المشرفة تأمر بالجهاد، وترتب له الأجور العظيمة في الدنيا والآخرة.

وأما أن هذه الكتاب تجربة جديدة فظاهر من نهوضها على مبدأ جديد يرعى الاستلهام، والقراءة المعاصرة وفاءً لمطالب الجيل المعاصر الذي أنا منه، والذي تعرض لأكبر عملية تدويخ استهدفت مسخه، ومسخ هويته، واستهدفت- إن لم تستطع هذه- تشويهه، واستلاب مقومات شخصيته الإسلامية، واستهدفت إن لم تستطع هذه أيضًا أن تحيره، وترجه، وتفقده الاتزان، وكل ذلك قد كان لقطاعات غير قليلة من أبناء المسلمين على امتداد يزيد على قرنين كاملين.

وهذه التجربة الجديدة توجهت لفحص عدد من فتوحات الإسلام، وقد كان قائدها في الاختيار مجموعة من المعايير، اجتهدت اجتهادًا بالغ التدقيق في تحقيقه، وهي:

أولًا: قصر الاختيار على فتوحات البلدان التي وقعت في شهر رمضان، إيمانًا مني بأن العناصر الروحية في التركيبة الإنسانية أعلى وأسمى ولها الهيمنة على العناصر الطينية في هذا الإنسان العجيب، وكشفًا عن تأثير القرآن الكريم الذي نزل في هذا الشهر العظيم في أخلاق المسلمين في أخطر الميادين وهو ميدان الحروب والجهاد.

ثانيًا: عدم الاقتصار على فتوحات الجيل الأول من الصحابة والتابعين، ومتابعة الاختيار من عصور تالية متأخرة قريبة من عصرنا، لكي نفحص مدى ثبات المنظومة الأخلاقية التي حكمت المسلمين المجاهدين في حركة فتوحاتهم العظيمة التي تغيَّت التوسعة على الخلق، ونقلهم من جغرافية الظلم والكفر إلى

جغرافيات العدل والإيمان وهو وجه يرقى بالجهاد إلى مرتبة الإجماع العلمي الذي استند إلى ممارسات المسلمين في كل العصور.

ثالثًا: عدم الاقتصار على فتوحات الجزيرة العربية، ومتابعة الاختيار من جغرافيات وبيئات مختلفة، شملت وغطت القارات الكبرى القديمة، آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، لتكشف عما بذله المجاهدون في حركتهم العالمية التي استهانت بالأماكن وبعدها، واستجابت لمطالب الإنسانية المقهورة المعذبة في الأماكن جميعًا.

رابعًا: التنويع في الاختيار؛ ليشمل الاختيار من فرعين هما:

أ. فتوح المجاهدين القراء الفقهاء، وأقصد بها تلك الفتوحات التي كان رجالها ومجاهدوها من العلماء والقراء والفقهاء الذين تحركوا في الفتوح ثم سكنوا البلاد التي فتحوها وعاشروا أهلها، وخالطوهم وعلموهم، ونقلوا لهم أحكام الدين وأخلاقه.

وقد أثمرت هذه الفتوح استمرار البلاد تحت حكم الإسلام على امتداد الزمان، وهو ما كان في فتوح العراق والشام ومصر والمغرب العربي.

ب. فتوح المجاهدين العسكر، وأقصد بها تلك الفتوحات التي كان رجالها ومجاهدوها من العسكر، أي من غير الفقهاء والقراء الذين تحركوا في الفتوح، ولم يجلسوا بين أهالي البلدان التي فتحوها، ولم يخالطوهم، ولم يراعوا تعليمهم.

وقد نكصت كثير من هذه البلدان التي فتحت بهذه الأجيال المجاهدة من العسكر، وارتدت وارتمت في أحضان أديان وملل أخرى.

إن هذه التجربة الجديدة القائمة على استلهام عدد من الفتوحات التي وقعت في رمضان قصدت إلى استنباط عدد من القواعد الإستراتيجية، وقصدت إلى استخراج عدد من الدروس التي يلزم تعلمها واستصحابها، واستحضارها، واختبارها، ونحن نسير في طريق استعادة الذات.

إن قصارى ما تطمح إليه أن تدل وفق منهجية منضبطة- على ما حكم الأمة في حركة جهادها لعدوها في الزمان الذي سبق زمان التشويه، والمسخ، والتدويخ.

ويتلخص منهج هذه التجربة في الاستلهام والقراءة الاستثمارية المعاصرة في مجموعة من الخطوات الإجرائية تتمثل في ما يلي:

أولًا: التمهيد بين يدي كل فتح بتوطئة موجزة مكثفة تكشف عما يسكنه من قوانين إستراتيجية.

ثانيًا: الاعتماد على المصادر التاريخية الأصيلة في عرض الحادثات المختارة من هذا الفتح أو ذاك الذي ترى التجربة أنه محل استلهام واستنباط، وتوثيق النقول في متن القراءة والتحليل. وهي منهجية توثيقية تراثية عريقة، ومستعملة في صناعة البحوث في الغرب كذلك.

ثالثًا: ربط الفتح في الأحداث محل الاختيار والتحليل بالواقع المعاصر؛ وما تحتاج إليه الأجيال المعاصرة.

وبعد فلقد جاءت هذه التجربة وليدة شعور اقتحم على روحي، وملأ نفسي بضرورة فحص ما كان مما أنجزه الآباء المجاهدون في تاريخ هذه الأمة، وما بذلوه، وقدموه من تضحيات وبطولات.

ثم هي جاءت وليدة عقل وقلب ينتميان إلى هذه الأمة، ويحرصان على هويتها، ويتعاطفان مع تراثها، ومنجز أجدادها في غير تخل أو إهمال لمطالب جيله الذي ينتمي إليه في هذه المرحلة المأزومة المقهورة، المتردية من تاريخ حضارتنا.

وإنني لمدين لنفر كريم من الأصدقاء شجع عليها، وتحمس لنشرها أخص منهم الأستاذ علاء زعزوع مدير دار البشير، والأستاذ زكي خلفه والأستاذ عبد القادر أمين والدكتورة أمل أحمد إبراهيم، فلهم مني موفور التحية والشكر والعرفان بالجميل.

خالد فهمي

في.. شوال ١٤٣٧هـ أغسطس ٢٠١٦م

معركة الفراض (رمضان ١٢هـ/ ٦٣٣م)

ارتبط شهر رمضان المكرم في الوجدان المسلم بالنصر، وربما صحَّ التدليل على ذلك بما عُرف عن الشهر الفضيل من أنه شهر الصبر، والوحي الكريم دائما ما يعلق النصر على الصبر، ولطالما وردت مشتقات الصبر مرتبطة بالرباط في سبيل الله، والثبات في ملاقاة العدو، وكلها سياقات جهادية كما نرى.

السنة المطهرة أيضًا أكدت ذلك حينما ربطت بين النصر والصبر، ومن أجل ذلك استقر في العقل المسلم صحة النظر إلى رمضان على أنه شهرٍ الانتصارات، آزر ذلك وأعلى من شأنه امتلاء التاريخ الإسلامي قديما وحديثًا بما يعزز ذلك النظر إلى الشهر الكريم.

ومن هنا كان دخول رمضان فاتحة تُعلي في نفوس المسلمين اليقين في الله سبحانه، وفاتحة تُعلي في القلوبِ المؤمنة إمكان عودة أمجاد الأمِّة الإسلامية الخاتمة، لا سيما أن شهر رَمضان يخف بالأجسام، لتُحلِّق الروح في جوٍّ من الإيمانيات، من هنا تعلق الناس جميعًا باستعادة ذاكرة الانتصارات الرمضانية لإذكاء هذا اليقين ولإعلاء هذه الروح.

ومن المعارك التي كان لها أثرها الكبير في تاريخ الفتوحات عند المسلمين معركة الفراض، والفراض هي تخوم الشام والعراقِ والجزيرة أي: الحدود الجامعة لهذه المواضع الثلاثة الكبرى التي كانت تُمثل حجابًا يحجز بين حضارتي العالم القديم.. الفرس والروم!

وفي هذه الموقعة تمَّ تحالف ثلاثي بغيض بين العرب والعملاء والروم النصارى والفرس المجوس ضد المسلمين بقيادة خالد بن الوليد- رضي الله عنه-.

يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان(فراض) ٤/ ٢٤٤ «دار صادر بيروت عام ١٩٩٥م»: (واجتمعت عليه الروم والعرب والفرس، فأوقع بهم وقعة عظيمة... قتل فيها مائة ألف)!

وتاريخ العداوة واحد في فعله في الأنفس البشرية، فالمجوس الفرس والنصارى الروم استطاعوا أن يتناسوا زمن العداوة التي بينهم لحرب المسلمين ومحاولة كسر شوكتهم.

والتاريخ كذلك واحد في أولئك الذين غلَّبوا مصالح الاقتصاد، والذين ركنوا إلى الهزيمة النفسية.. يتضح ذلك في موقف العرب الذين ركنوا إلى صف الروم والفرس في هذه المعركة انهزامًا نفسيًّا وركونًا إلى أنهما يمثلان القوتين العظيمتين، هذا الرضوخ أو الركون أنساهم قرابتهم للمسلمين وهو ما يذكرنا بمواقف الكثيرين من المعاصرين الذين يعيشون بيننا، ويتكلمون بلساننا لكنهم ارتضوا أن يبيعوا أنفسهم للقوى العظمى المعاصرة!

يقول ابن كثير في البداية والنهاية: «هجري: ٩/ ٥٣٤» ثم صار خالد بمن معه من المسلمين إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فأقام هنالك شهر رمضان».

ومن الأمور البارزة في هذه المعركة التي يجب الالتفات إليها ما يلي:

أن نظر عقلاء الأعداء إلى مقاتلة المسلمين غيرهم نابع من الدفاع عن الحق، وأن هذا الحق هو سر ما يحققونه من النصر على عدوهم، وهو ما نلح عليه اليوم من وجوب ربط الناس بدينهم؛ لأنه لا نصرَ بمعزلٍ عن هذا الدين.

يقول الطبري في تاريخه «دار المعارف ٣/ ٣٨٣» فيما رواه عن الفرس والروم: «قالت الروم والفرس بعضهم لبعض.. احتسبوا ملككم؛ هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم»!

لقد فطن هؤلاء إلى السر الذي يحقق للمسلمين انتصاراتهم ولخصوه في ثلاثة من أهم المبادئ وهي:

الدين والعقيدة التي تحرك المؤمنين بها، ويهون عليهم حياتهم في سبيل إعلاء كلمتها، ثم العقل والعلم وهما ما يمكن ترجمتهما بالمعارف والتخطيط، وخالد المشار إليه رمز للمسلمين جميعًا.

أمر آخر ينبغي أن يسترعي انتباهنا وهو: أن الجهاد لم يكن يتوقف لاعتبارات مما يتوقف من أجلها اليوم أعمال الناس، فهذه المعركة امتدت من رمضان حتى أوائل ذي القعدة من العام نفسه، فالأعياد مواسم طاعة قبل أن تكون مواسم ترفيه، فضلًا عن أن تكون مواسم معصية أو كسل.

لقد كان المجاهد المسلم قديمًا يتعبد لله بجهاده وعمله، ويرى سعادته وهو يخطر بسيفه على أرض يفتحها الله سبحانه، ويرى نشوته ويعزف بسيفه ورمحه في الهواء، ويرى تحقق علوه وعلو الحق الذي يؤمن به وهو فوق جواده الذي يرقص طربًا.

وهذه المعركة تفرض علينا اليوم مراجعة أمر الحدود، وربط القائمين فيها بالوطن الأم ثقافيًّا وفكريًّا، والعمل على إشراكهم في هموم الوطن رفعًا للانتماء في نفوسهم، ودفعًا لليقظة البالغة لما يمكن أن يكون من ممارسات لمن يلونهم من الأعداء حتى لا تستقطب بعض الأفعال من قبل العدو بعضًا مما ضعف روابط الانتماء في نفوسهم، وابتعدت عن عقولهم نقاط الارتباط بثقافة الوطن.

إن موالاة بعض العرب قديماً من سكان الحدود المتاخمة للفرس والروم ولأعداء المسلمين أمرٌ يثير ضرورة التصدي لمحاولات الاختراق المعاصرة من قبل الكيانات المجاورة وتأثيرهم على سكان الحدود.. إن أجهزة التربية والثقافة والعسكرية عليها أن تعي ضرورة ربط هؤلاء بآمال أوطانهم.

أمر آخر تفجِّره هذه المعركة وأخوات لها في تاريخنا الجهادي والعسكري وهو: أن مؤامرات الأعداء وتكتلهم وتحزبهم، ونسيان الفوارق التي بينهم؛ كل ذلك أمر قديم ولا يتوقع زواله أو نسيانه.

إن تجمع الروم على ما بينهم من صراعات، وأطماع وخلافات عقدية لم يمنعهم من الاجتماع لحرب المسلمين، إلى الغرب أحيانًا على أنهم مختلفون ربما يكون خوارًا وخللًا في الرؤية وركونًا إلى ما نحب مما يخالف حقيقة الأشياء!

موقعة الفراض كانت قريبة عهد بزمان النبوة.. خان فيها البعض مواثيق اللسان والقرابة والدم، تكاتف فيها فرقاء الأمس (الفرس والروم) وليس بخافٍ ولا منكور أن يتجدد الموقف الآن، فهل يعي المعاصرون المخاطر التي تحيق بعالم المسلمين؟!

فتح القادسية رمضان ١٤هـ

استطاع الإسلام أن يُقدِّم الدليل سريعًا على عالميته، وأن يُقدِّم الدليلَ على استيعاب الصحب الكرام لهذه الحقيقة استيعابًا رائعًا لا لبس فيه، وهو ما تجلَّى في تغيير خريطة العالم على أيامه، وتعديل ميزان القوى، كما تقول الأدبيات السياسية والتاريخية.

وقراءة ما حكم حركة الفتح الإسلامي وتوجهه نحو القادسية يعكس ما استقرَّ من وعي قديم للأهمية الإستراتيجية والجيوبولتيكية (الأهمية السياسية في اشتباكها مع الجغرافيا) الذي تنامى على إثر العلاقات القديمة بين العرب والفرس.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ٦١٦: «وبعث عمر كتابه إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بالمبادرة إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وأن يكون منزله بين الحجر والمدر، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس، وأن يبدروهم (من المبادرة والمبادأة)».

ففي هذا النص استثمار لمعرفةٍ جاهليةٍ قديمةٍ زادها الإسلام رسوخًا تتجلَّى في:

أ- تقدير الخطر الجغرافي المتمثل في كون القادسية بوابة فارس من جهة العرب، وهو ما ينبغي التنبه له مع المواقع الحدودية للدول الإسلامية المعاصرة، وأنها تحتاج إلى عنايةٍ خاصة.

وقد تجلَّت بعض العناية بالمواقع الحدودية أو ما كان يُسمَّى باسم الثغور، في مناح متنوعة في الفكر الإسلامي، فظهرت الرباطات أو المواقع العسكرية الدائمة، وأفتى الفقهاء ببقاءِ سهم المؤلفة قلوبهم واختصاصه بسكان الحدود؛ مما تتجلَّى بعض تطبيقاته المعاصرة فيما يسمى بزيادة رواتب العاملين في المناطق النائية.

ب. استثمار الخبرة القديمة في الحرب بين القبائل العربية وتطويرها في الفتوحات الإسلامية كما يظهر في مفاهيم: المبادرة الحربية واختيار الأماكن الملائمة مناخيًّا بين الحجر والمدر، وهو التفات مبكر لاختبار المواقع وتأثيرات المناخ على المعسكر، وهو ما تجلَّى مثلًا في تخطيط الكوفة والبصرة فيما سُمِّي في أكبر حركة إعمار عالمية باسم «تمصير المدن».

ج- تكاتف جميع أجهزة الدولة الإسلامية من مركز القيادة في هذا التوقيت؛ حيث انطلق جيش الفتح من المدينة المنورة مصحوبًا بحركة كبيرة من الكاشفين (مخابرات الاستطلاع) وتكليف مجموعات بتجميع الأطعمة والمؤن.

وقراءة أحداث هذه الوقعة العظيمة يعكس أن النصر فيها كان وليد عناية جبَّارة بمجموعةٍ من المبادئ المهمة، هي:

أولًا: العناية بتطبيق المبادئ النبوية، وهو ما ظهر في كثير من القرارات التي اتخذتها قيادة جيوش الفتح، وهو ما يظهر مثلًا في مفاوضات ربعي بن عامر مع الفرس عندما استمهلوه وقتًا لمكاشفة رؤسائهم فأبى إلا يومًا أو يومين وعلى ذلك بقوله ٩/ ٦٢٢: «ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نُؤخِّر الأعداءَ أكثر من ثلاث».

ثانيًا: العناية بمبدأ التفويض الفعَّال، بمعنى الموازنة بين المركزية الخانقة التي قد تفوِّت على المسلمين مكاسب عاجلة وبين الاستقلالية المغرورة التي لا ترى للمركزية أية قيمة، وهو ما تجلى في مفاوضات ربعي بن عامر كذلك عندما قالوا له: أسيدهم أنت؟ فقال: «لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجيز أدناهم على أعلاهم».

ثالثًا: التحام القيادة الجيش والشعب وراء أهداف الفتح، وهو ما ظهر من عناية الأدبيات التاريخية بأمر عمر الذي كان يستخبر عن أمر القادسية كلَّ مَن لقيه من الركبان ويخرج إلى ناحية العراق يستنشق الخبر، إذ هو التعبير القديم كأنما يرى تتبع أخبار جنود الفتح ما يُقيم حياته!.

رابعًا: تركيز الأدبيات التاريخية على الربط بين النصر وطاعة الله سبحانه، كما يظهر من خطاب سعد إلى عمر بخبر الفتح الذي يقول فيه ٩/ ٦٣٦: «كانوا- أي المسلمين- يدوون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل كدوي النحل وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة».

هذه وقعة تُعلِّم الأمة ضرورة معارفها كلها، وتلفت الانتباه إلى خطر التربية الجهادية، وتَبين عن خطأ التفرقة بين ما تسميه بعض الأنظمة المعاصرة بعلوم العصر من المعلوماتية وغيرها تقديماً وبين علوم إنسانية كالجغرافية والتاريخ وتخطيط المدن تأخيرًا.

وهي تعلمنا كذلك أنه لا نصر من غير طاعة الله، ولا نصرَ من شعورٍ عميقٍ من القيادة نحو شعوبها.

باسم هذا الإيمان وباسم تقدير المخاطر التي تُحيط بالأمة فتح المسلمون القادسية وأزالوا قوًى غاشمة قدَيمة استطالت بقوتها وكفرها، والمأمول اليوم أن نُعيد استثمار ما استثمروه سلفًا.

وتُفيد بعض الأدبيات التاريخية في عرضها لدوافع الفتح بعضًا من الأسباب التي تحققت للدولة المسلمة، فقادها إلى النجاح فيما قامت به من فتوحات من مثل الشورى وتقدير الكفاءات، وهو ما تجلى فيما عرضه البلاذري فيٍ فتوح البلدان ٣٥٦م آراء تتعلق بتوقيت الفتح واختيار القائد له.

كما تُفيد مسألة مهمة ينبغي أن تراعى في التربية المعاصرة، وهي أنَّ لكل نصر تضحيات كبرى، وهو ما يمكن استنباطه من الأوقات التي كان يستغرِقها الفاتحون في معاركهم التي قد تدوم سنوات طويلة.

لقد تحرَّك المسلمون وملء نفوسهم يقين في صدق موعود ربهم وبلاغ رسولهم ﷺ فتحقق لهم عز الدنيا ونجاة الآخرة.

فتح بيت المقدس في رمضان عام ١٥هـ

إن ستين عامًا من الاحتلال الصهيوني للأرض المباركة في فلسطين لا يصح أن يكون مدعاةً لليأس أو فاتحةً للقنوط.

قفز إلى خاطري هذا المعنى مع حلول الذكرى الستين لنكبة فلسطين ووقوعها أسيرةً في أيدي الصهيونية العالمية بمباركة غربية وببعضٍ من خيانات إقليمية ومحلية.

ومراجعة فتح القدس في الدولة الراشدة في خلافة عمر بن الخطاب دالٌّ على بعض الذي ظهر في هذا المفتتح؛ إذ استطاع المسلمون أن يفتحوها باسم الإسلام بعد قرونٍ من الاحتلال الروماني، وهم أصحاب إمبراطورية ضخمة ملكت العالمَ القديم.

وأحداث الفتح كما يلخصها اثنان من مؤرخي المسلمين هما:

١- البلاذري في فتوح البلدان، وهو من أشهر مؤلفات الفتوح الإسلامية.

٢- ابن كثير في البداية والنهاية، وهو من أشهر مؤلفات التاريخ العام المؤلَّف على السنوات.

وهو اختيارٌ يحكمه كذلك غير تنوع المنحى التأليفي في التغيرِ الزمني لحياة كلا المؤرخين الكبيرين؛ إذا الأول- وهو البلاذري- متوفًّى سنة ٢٧٨هـ، والثاني- وهو ابن كثير- متوفًّى ٧٧٤هـ.

الخلاف القائم في تحديد عام فتح بيت المقدس مردُّه إلى المدى الزمني الذي استغرقه، يقول البلاذري ص ١٨٩ (طبعة مؤسسة المعارف بيروت

١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م): «وكان فتح بيت المقدس (إيلياء وهو الاسم القديم لها) في سنة ١٧هـ، وقد روي في فتحها وجه آخر».

والمدينة فتحت صلحًا بعد حصارها مدةً من قِبل جيوش الفتح الإسلامي، والاستجابة للصلح بشروط؛ منها: قدوم الخليفة، وإنفاذ كتاب أمانٍ لهم يعكس الروح المسالمة لطبيعة الفتوح الإسلامية، وإلا فلماذا استجاب جيشٌ- على وشك إسقاط مدينة- لدعوة أهلها إلى المصالحة إن لم تكن ثقافته التي تربَّى عليها تسعى إلى إحلال الإعمار في العالم.

ويزيد ابن كثير في البداية والنهاية ٩/ ٦٥٥ (طبعة دار هجر ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م): «إن أبا عبيدة قائد الفتح كاتَبَ أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الله والإسلام أو يمكنوه من نشر دعوته ببذل الجزية التي هي عنوان هذا التمكين أو إنذارهم بالحرب، وكان اختيارهم الحرب؛ مما قاده إلى إحكام الحصار عليها حتى أجابوا إلى الصلح».

وهذا وجه جديد زاده التفصيل وضوحًا، وهو أن دعوة الصلح كانت من قِبل المسلمين بموجب النداء المبكر من أبي عبيدة.

وتقول الأخبار إن عمر استشار أصحابه في الخروج من عدمه، فكان الموقف توزُّع الآراء على فريقين:

١- فريق يرى أصحابه عدم الخروج تحقيرًا لهم وإرغامًا لأنوفهم، وكان يتزعمه عثمان رضي الله عنه.

٢- فريق يرى أصحابُه الخروجَ تخفيفًا على المسلمين وهم في حصار المدينة، وتقديرًا لمنزلة بيت المقدس، وهو ما دعا إليه علي رضي الله عنه، واستقر الأمر عليه.

وتحليل أحداث هذا الفتح دالٌّ على أن الإسلام يسعى إلى تبليغ كلمة الله سبحانه والتحرك لإزالة الطواغيت والحركات الاستبدادية التي أرهقت شعوب الأرض، وهو ما تبدَّى في هذا الجهاد المتواصل.

ثم إن انتصار الإسلام في القدس لم يَأْتِ من فراغ، وإن كان نتاج مجموعة ضخمة من العوامل المستقرة في بناء الدولة الإسلامية، من مثل:

أولًا: أجواء العمل المؤسسي في الدولة الإسلامية، وهو ما تجلَّى في حالة الشورى التي دعا إليها عمر بن الخطاب لاتخاذ قرار في شأن الخروج إلى بيت المقدس أم لا؛ استجابةً لشرط أهاليها.

ثانيًا: سيطرة مفهوم التأسِّي والاقتداء بالنبي ﷺ، وهو ما ظهر فيما تذكره كتب التاريخ من أن عمرو دخل من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء ملبِّيًا، والتلبية هنا تدعم القول بأن فتح بيت المقدس كان هدفًا دينيًّا؛ حرَّك أسبابه الاستجابة لما استقرَّ في الوجدان الإسلامي من وجوب تحرير هذا البيت المحرم.

ثالثًا: تجلي التطبيق العلمي للمقاصد الإسلامية المتمثِّلة في تنزيه المقدسات وتطهيرها، وهو ما تقرِّره الأدبيات التاريخية؛ حيث كان أول عمل هو تطهير قبة الصخرة وإزالة ما كان يُلقى فيها من قمامة، وهو ما كان يفعله النصارى- حيث كانت قبة الصخرة في جهة قبلة اليهود- انتقامًا من اليهود على إثر ما قاموا به من معاملة المكان الذي صلب فيه المصلوب بإلقاء القمامة فيه.

هذان فريقان انتقم كل فريق منهما بإهانة مقدسات خصمه، حتى إذا جاء الإسلام طهَّر مقدساته واحترم مقدسات غيره.

إن فتح بيت المقدس أكد أن الإسلام استردَّها من الروم بسبب قوة المسلمين وبسبب عدم استبداد حكامهم، وبسبب تقديس الأراضي المباركة، وبسبب الرحمة بالخلق، وبسبب أجواء الحريات الدينية التي كفلها للمخالفين له، وبسبب تقدير معابدها، وبسبب إرادة إعمار هذه الأرض، وبسبب إيمان متجذِّر أولًا بوجوب تحريرها، وأن تحريرها اقتداء بالنبي ﷺ الذي صلَّى فيه إمامًا، وبمثل هذه الأسباب ستعود القدس حرةً لتكون مع بيت الله الحرام بمكة شعارَ الإسلام وعلامةَ خضوع الأرض لله سبحانه.

على أن ملمحًا مهمًّا يفرض نفسه هنا، وهو الأثر الفعال لما سُمِّي في الأدبيات التاريخية القديمة باسم الحصار، وهو ما تمارسه الآن الكيانات المعادية للإسلام، وهو ما يفجِّر قضية مهمة جدًّا، وهي: ما مدى أثر التربية التاريخية في الأجيال المعاصرة في بلدان المسلمين، بمعنى إلى أي مدى يمكن أن نتعلم من تاريخنا في مواجهة من يتعلمون منه لنصرة قضاياهم!

باسم الحصار استطاع مسلمو الأمس أن يحقِّقوا تحرير الأرض، ونحن مطالبون اليوم بأن نقتديَ بأبي عبيدة وجيشه؛ فنفعل فعلهم الذي سُمِّي اليوم باسم المقاطعة، وعلى الأنظمة أن تفعل فعل عمر وعلي في اختيار الأفعال التي تعين إخواننا المسلمين هناك لتخفيف وطأة الحصار عليهم، وهي العبارة التي ذكرها ابن كثير في تسويغ خروج عمر، ولكن أين عمر الآن؟!

فتح مصر ٢٠هـ

«إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أمـوالًا».. بهذه العبارة الموجزة التي تلخِّص القيمة الإستراتيجية والاقتصادية وقبلهما الدينية لفتح مصر، حرَّض عمرو بن العاص الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على الإذن له في بدء فتحها.

تقول كتابات فتوح مصر: «فلم يزل عمرو يعظِّم أمر مصر عند عمر بن الخطاب ويخبره بعظيم حالها ومكانتها حتى ركن إليه عمر وعقد له وأذن له في المسير إليها».

وقد صدَّق التاريخ ظن عمرو بن العاص في رؤيته؛ حيث صارت مصر قلب الإسلام الخفاق بعد زمان قصير من فتحها، لقد حملت اللواء ولبثت طوال العصور معقلًا منيعًا للإسلام، ومنارة ساطعة حمت تراثه وحنت عليه ورفقت به وأدته زائدًا ناميًا رابيًا في أشد الأوقات وأحلكها وأعصفها.

وقد كان من آثار هذه الرؤية الإستراتيجية لفتح مصر التي يذكرها بعض المؤرخين أنه بدءًا مع رمضان سنة ٢٠هـ التفت المؤرخون المسلمون إلى ما كانت تستمتع به من فضائل حتى ظهرت قائمة طويلة لمصنفات حملت عنوان فضائل مصر.

وقد تميز فتح مصر بما تميزت به فتوح المسلمين عمومًا من تسامح ورأفة بالشعوب التي توجَّهوا إلى فتح بلادها؛ لا يريدون سوى إيصال كلمة الله إليها، وقد تجلَّت فيما يلي:

أولًا: اعتبار مصر كلها في ذمة الله سبحانه وذمة رسول الله ﷺ، مع أنها فُتحت عنوةً، أي بقوة السلاح؛ ولهذا الأمر آثار مادية تمثَّلت في ترك أرضها لأهلها، فلم يستغل المسلمون أرضًا ولا ضياعًا ولا أملاكًا مما يوجبه الفتح التي سمي باسم العنوة، هذا فتح يسعى إلى الإعمار!

ثانيًا: تأمين أهل مصر من النصارى وتأمين كنائسهم بدون تعرض لها.

ثالثًا: تعمير الجسور وتخطيط القرى والمدن.

رابعًا: براءة الفاتحين من جرائم الحضارة كما أثبتت الدراسات؛ فلم يحرق المسلمون معبدًا ولا مكتبة ولا هدموا أثرًا!

لقد كانت أخلاق الفاتحين المسلمين المتسامحة سببًا في كثير جدًّا من الروايات التاريخية التي تتغنَّى بسماحة الإسلام وأهله.

والمدهش أن كثيرًا من المؤرخين الغربيين والنصارى الذين عاصروا الفتح كانوا قد شهدوا بهذا، ومن هؤلاء المؤرخ يوحنا النقيوسي الذي يقول: «وكان عمرو يقوي كل يوم عمله؛ يأخذ الضرائب التي حدَّدوها ولم يأخذ شيئًا من الكنائس ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام».

وهذا نصٌّ واحد من نصوص كثيرة شاهدة على عدل الفتح وحضارته، وقد ظهرت هذا الأخلاق السامية في الأمان الذي أعطاه عمرو لأهل مصر، وهو العهد الذي أثبته يوحنا النقيوسي الذي يروي في كتابة نصه؛ حيث يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم؛ لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، وعلى أهل

مصر أن يعطوا الجزية على الصلح، وعليهم ما جنى لصوصهم، وإن نقص نهرهم من غايته رفع عنهم بقدر ذلك».

في هذا العهد الذي اختصرناه رعاية وشفقة بالمصريين وعدم عسف بهم وتقرير حرياتهم في التملك والتدين ومراعاة الجزية لأحوال النهر زيادةً ونقصانًا؛ حتى لا يشق الأمر عليهم، وهذا أبلغ رد على من زعم مثلًا أن سلطان العرب انتشر بالقهر، أي قهر مع هذا الأمان البالغ؟!

لقد استطاعت مصر حضاريًّا وثقافيًّا أن تكون يدًا قويةً استعان بها تاريخ الإسلام في بناء حضارته مما صدق ظن عمرو فيها؛ فتميزت مصر شخصية تاريخية وحضارية وعلمية حتى صح في هذا الباب إطلاق عنوان (المدرسة المصرية) في ميادين معرفية كثيرة.

ويكفي لكي نثمِّن الركون المصري إلى الفتح الإسلامي والرضا بالعربية أن نعلم أنه قد تتابع على مصر حكم أجنبي طويل لمستعمرين، من أمثال الهكسوس والآشوريين والفرس واليونان والرومان، دون إن يتمكَّن أحد من فرض لغته على مصر حكومةً وشعبًا، أو القضاء على اللغة الوطنية المصرية تمامًا، حتى جاء العرب فتمكَّنوا من ذلك لاعتبارات عديدة ليس منها قهر العرب المسلمين.

إن تحول مصر إلى العربية إعلان صريح من جانبها بأنها أدركت فارق ما بين الفتح الإسلامي الإعماري والغزو والاحتلال!

أخذت مصر بالإسلام، ونهضت وتميزت، وردَّت الجميل وما يزال المأمول منها كثيرًا باسم العشق لهذا الدين تتحرَّك لتحميَه وترعى لسانه.

فتح شذونة رمضان ٩٢هـ

هل ثمة فارق يمكن أن نتلمسه في حركة الفتوحات الإسلامية التي فتحت المشرق العربي الذي صار إسلاميًّا بما ضم إليه من العراق وما وراءها والشام إلى مصر عن أختها حركة الفتوحات التي توجَّهت إلى الأندلس وبلدان أوروبا؟!

هل كانت أجيال الفاتحين في عهد الخلافة الراشدة مختلفة عن أجيال الفاتحين في عهد الخلافة الأموية؟ وهل ثمة اختلاف في ثقافة كلٍّ من الجيلين؟

إني أريد أن أسعى إلى توجيه سؤال يريد أن يتوارى خلف هذه المقدمات، وهو: لماذا سقطت الأندلس بعد هذا العمر الطويل من سيطرة العرب عليها؟!

أحسب أن الاحتكام إلى مقولة احتواء الإسلام لأبناء الشرق والتعاطي مع ما بقي ثقافتهم غير المخاصمة للإسلام، كان هو كلمة السر في بقائه «هنا» ورحيل المسلمين عن «هناك»!

لم تفرد الأدبيات التاريخية مساحة واسعة لفتح شذونة، وهي من البلدان الحدودية المطلة على البحر المتوسط من جنوب الأندلس كما حدث مع القادسية باب فارس في الجاهلية، وهو أول فارق في فلسفة الفتح يفاجئك في قراءة التعاطي مع بلدان الحدود في فتوحات جيل الدولة الراشدة وفتوحات جيل الدولة الأموية، وهو ما انعكس بدوره على تعامل الأدبيات التاريخية العربية مع كلا الفتْحين.

كانت آثار المعرفة الجغرافية والتاريخية ببلدان فارس وتقدير خطرها عاملاً حاسماً في حماية مكاسب فتح فارس الذي تجلَّى في تمصير مدن عربية كاملة من العدم تكون عمقًا إستراتيجيًّا يمنع من استرداد فارس لبلدان إمبراطوريتها الذاهبة.

كان قرب جيوش الفتح من عصر النبوة بما استقر في نفوسهم من فعل الهجرة ذا أثر حاسم في الهجرة إلى بلدان جديدة سلكها العرب في البصرة والكوفة في الطريق إلى القادسية وفارس، لقد كان مسكن القبائل العربية في الطريق إلى الأمم المفتوحة عاملاً حاسماً في تغيير الخريطة الديمغرافية السكانية التي حمت مكتسبات الفتح الراشد؛ لأنها ذوبت العناصر الثقافية عن طريق الاحتواء السكاني، وهو ما لم يحدث في فتوحات دولة بني أمية للأندلس.

وربما كان البربر- وهم أغلبية في جيش فتح الأندلس- سببًا آخر في عدم استدامة الفتح وانهياره بعد ثمانية قرون!

هل فَتُرَت ثقافة الهجرة فغاب الأندلس؟!.. ربما!

أمر آخر نلمسه في قراءة أحداث فتح شذونة (أول ما يقابل من بلاد الأندلس من جهة البحر قادمًا من بلدان المغرب)؛ هو أن حركة الجيوش كان أبعد عمق لها هو القبائل المتأخرة لمضيق جبل طارق من بلاد المغرب، وهي مسافة بعيدة جدًّا عن مقر الحكم المركزي في الشام لدولة بني أمية؛ مما يوحي بغياب أو خفوت الصوت العربي من أبناء الصحابة والتابعين، وهو أمرٌ له آثار سلبية على توجيه حركة الإعمار الفكري في داخل الأندلس نفسها، وهو ما ظهر في بقاء عدد ضخم من النصارى يعملون بما يسمى استرداد الأندلس، ولو أن العنصر العربي الإسلامي الذي ظهر في فتوحات أبي بكر وعمر وعثمان- رضي الله عنهم- كان

بارزًا في حركة فتوحات الأندلس بما يميزه من تقدير لقيمة المَعْلم، وبما يميزه من القدرة على التغير باسم المعايشة لربما تغير أَمر الأندلس ولربما لم تنجح حركة ما يسمى باستردادها.

ثمة أمر آخر لا أحب أن أقف أمامه طويلًا، وهو: هل كان لحظ النفس أثر في البدايات انعكست على نهايات الوجود المسلم في الأندلس؟!

تقول الأدبيات التاريخية.. إن طارق بن زياد بدأ فتح الأندلس وبدأ فتح شذونة ثم حسده سيده موسى بن نصير؛ فأسرع ليتم الفتح معه، وهو ما ظهر في غير مصدر تاريخي قديم وحديث في تعبيره!! وأتم موسى بن نصير فتح شذونة.

وأنا بطبيعة الحال أقلق من مثل هذه التفاسير مع إمكان وجودها، لكن المهم هو أن التعامل مع الأندلس في لحظة من اللحظات تمَّ على اعتبارها جزءًا معزولًا عن جسد الخلافة في المشرق، وربما دعم هذا قيام الدولة الأموية في الأندلس بعد سقوطها في المشرق، واستمرت إلى أوائل القرن الخامس الهجري (٤٠٣هـ) على التعيين.

فتح شذونة وما أثير حوله من كتابات قليلة يفتح الباب إلى أن نتعلم من أخطاء ما كان ينبغي أن تقع.

باسم الإسلام فُتحت الأندلس، وفُتحت أولى محطاتها في شذونة، وباسمه تم تعميرها زمانًا طويلًا، لكن الفتح لم يَدُمْ سوى ثمانية قرون، وهو أمر ندعو إلى قراءة أبعاده وتجلِّياته.

ثمة فارق بين فتوح القارئين وفتوح المقاتلين، وهو ما أدعو المتخصصين في حركة الفتوح الإسلامية إلى أن يولوه فضل عناية.

فتح السند والهند (رمضان ٩٤هـ ٧١٣م)

قراءة التاريخ لا يصح فيها- لا سيما في بابِ التقييم لأعمال أحد أو لأعمال دولة- أن تكون قاصرة النظر، مجتزأة الصَورة.. أقول هذا الكلام لما شاع واشتهر في الكتابة عن دولة بني أمية، والإسهاب في عد مثالب رجالها العظام، ومثالب نظامها الحاكم.

كل ذلك صحيح، ولكن الصحيح كذلك، أنَّ هذه الدولة المغبونة في تقييمها هي أعظم دولة قادت حركة الفتوحات الإسلامية، وانتشلت مساحات شاسعة من الكفر إلى الإسلام.

يقول ابن كثير- في البداية والنهاية (هجرية ١٩٩٨م ١٢/ ٤٦٠) في أحداث سنة أربع وتسعين-: «وفيها فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه، حتى عاد الجهاد شبيهًا بأيام عمر بن الخطاب- رضي الله عنه».

هذه شهادة واحد من كبار مؤرخي الإسلام، وليس فيها شبهة ممالاة؛ لأنه لم يكتب ما كتب إلا وبينه وبين دولة بني أمية ما يربوا على ستمائة سنة!

والنص السابق يهز وينال من الصورة التي طالما عرضت للنيل من أبناءِ هذه الدولة ورجالها، فلم يكن رجالها غارقين في النعيم كما تصورهم الأَعمال الدرامية، بل كانوا يقودون حركة جهادية وصفها المؤرخ الكبير بأنها شبيهة بأيام عمر!

وفي هذه السنة افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند، ومن الأمور التي يجب الوقوف أمامها في أحداث هذا الفتح ما يلي:

أنه لما رأى أهل المدن الهندية تقدم محمد بن القاسم وقدرته على دحر مدن «راور»، «برهمناباذ»، وسقط من القتلى الآلاف، قابله أهل «ساوندري» طالبين الأمان فأعطاهم إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، ومثل ذلك حدث مع «بسمد» في صلحه معهم.

وهذا الذي قاله البلاذري في فتوح البلدان ٦١٦ يعكس مدى التزام المجاهد المسلم بأوامر الله سبحانه، فلم يكن المجاهدون المسلمون يُحركهم اشتهاء الدم، أو الظفر بالأرض، أو جمع الكنوز والغنائم.

لقد خرج المجاهد المسلم يملؤه الشوق الجارف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

والعجيب أن يشترط محمد بن القاسم في مصالحته لأهالي هذه المدن أن يضيفوا المسلمين، الرجل يطلب ضيافة المسلمين مع أنه صاحب البلد الأعلى، ولو سلب أو نهب ما رده أحد، لكن الجيش المسلم يريد أن يمكث ضيفًا في إقامته، وضيفًا في مطعمه ومشربه، إنه لا يريد أن يُقيم إقامةً أبديةً مستبدًّا طاغيةً يسير فيهم بمنطق الغالب القاهر.

شروط الصلح تُوحي بأن الفتح هو لتوصيل كلمة الله، والمجاهدون بعدما تمت عملية البلاغ لا مجال لمكثهم، هذا هو المفهوم من الضيافة، ولذلك تقول الأدبيات التي أرَّخت لهذا الفتح أن أهلها انقلبوا مسلمين.

مسألة أخرى جديرةٌ بأن نقف أمامها وهي: أنه لما تقدَّم المسلمون إلى السند لإتمام فتحها وصلوا إلى مدينة الرور فحوصرت ثم فتحها المسلمون صلحًا على شرطين: هما: عدم قتلهم، وعدم خراب بدهم (والبد بيوتهم التي يتعبدون فيها).

هذان الشرطان يقدمان صورة بالغة النصاعة في تأمين معتقدات أصحاب البلاد المفتوحة، لقد كان شغل المسلم الشاغل هو بناء مسجد وتمكينه من إبلاغ دعوة الله، من غير قهرٍ للآخرين أو محو هوياتهم.

إن ترك هذه المعابد التي يقول عنها البلاذري أنها كنائس النصارى واليهود وبيوت النار التي للمجوس، يدل على أن هذه الأمة تجاهد وهي تحترم معتقدات الآخرين، ولو كان معتقدهم التعبد للأصنام!

أمر أخير هو أن جند المسلمين كانوا يتحركون بأخلاق الإسلام من الرحمة والعفة والبذل، ودليل ذلك أن محمد بن القاسم لما مات الوليد بن عبد الملك وتولى سليمان عزل محمد وتولى غيره، فحُمِل القائد الفاتح مقيدًا فبكاه أهل الهند: يقول البلاذري ٦١٨: «فبكى أهل الهند على محمد».

فأي شيء حرَّك عاطفة هؤلاء نحو قائد بلَّغ كلمة الله؟ إننا لم نسمع ولن نسمع عن غازٍ قاهر يُبكيه مَن غزاهم وقهرهم، إنَّ بكاء الهند والسند على محمد بنِ القاسم أكبر دليل على رحمة الفاتح المسلم وبذله وكريم خلقه، بل إنَّ أدبيات ذلك الفتح تقرر أنهم صوروه وصنعوا له ما يُشبه التمثال.

هذه بعض عظمة الفتح الإسلامي وجدت طريقها إلى أنفس شعوبِ الأرض فعانقت دين الله.

فتح عمورية ٢٢٤ هـ

إن استنقاذ امرأة مسلمة مستضعفة في ديار غريبة لَمن آكد الواجبات والفروض التي لا تسقط.

هذا هو موجز المسألة في قراءة التحرك نحو عمورية من أرض الروم، وليس هذا فحسب بل يخرج أكبر رأس في الدولة على رأس الجيش؛ لأنها مسألة دين وكرامة، وهي مع ذلك كله مسألة أمة وجماعة.. استرعاه الله عليها.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية» وتجهز المعتصم «جهازًا لم يتجهزه أحد كان قبله من الخلفاء وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئًا لم يُسمع بمثله وسار إليها في جحافل كالجبال» ١٤/ ٢٥٢ طبعة هجر.

وقد قاد الخليفة جزءًا من الجيش وجعل على الجزء الآخر قائد جنده الأفشين ليطوِّقا جند الروم.

وكان سبب هذا الهجوم الكاسح من قبل جند المسلمين لعمورية؛ هو ما أوقعه ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية من المسلمين من ملحمة وقتل عظيم لدرجة أنه كان من جملة أسره ألف امرأة من المسلمات.

يقول التاريخ فانزعج المعتصم لذلك جدًّا وصرخ في قصره بالنفير ونهض من فوره فأمر بتعبئة الجيوش، واستدعى القاضي والعدول وأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه.

ونزل عمورية يوم الجمعة ٦ رمضان ٢٢٣هـ وكان سبقه بيوم واحد قائده العام الأفشين لكن من شهر شعبان من العام نفسه.

ومن تأمُّلِ هذه المعركة يتضح لنا أن ما كان يزعج خلفاء الأمة قديماً هو شأن الجماهير المسلمة ولو في داخل حدود عالم آخر غير عالم الإسلام، فالرجل لم يتعلل بأن المسلمين المعتدى عليهم خارج حدود خلافته.

أمر آخر جدير بالأهمية أن عمورية كانت مدينة عظيمة جدًّا ذات سور منيع وأبراج عالية، وهي على حد تعبير الطبري في تاريخه ٩/ ٥٧» لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبنكها (أي أصلها) وهي أشرف عندهم من القسطنطينية»

والتوجه إلى عمورية وهي بهذا الشأن الاستراتيجي بالنسبة للإمبراطورية الرومية مع أن القتل وقع لمسلمي ملطية- له دلالة خاصة وهي المبالغة في الانتصار للمسلمين بالتوجه إلى أمنع حصون الروم ودكِّها وإسقاطها!

أضف إلى ذلك أن خطورة الوضع في عاصمة الخلافة العباسية في عصره وهي سامراء لم تمنعه من الخروج بنفسه على رأس الجيش.

وخطورة الوضع في سامراء يكمن في أنه في هذا العام نفسه كان القبض على باتك الجرمى الذي دوَّخ الخلافة العباسية زمانًا فظفر به وقتله، والوضع قد يؤذن بثورة بعض أتباعه، فلم يهتم الخليفة لشيء من هذا ولم يتعلل بالوضع الداخلي، والمخاطر التي تحيط بنظامه وبظروف الأمن الداخلي كما يحدث في زماننا هذا.

بالإضافة إلى ذلك يصح النظر إلى التجرد البديع الذي أظهره الخليفة وأشهد عليه قبيل خروجه قاضيه وشهودًا عدولًا معه يقضي بأنه وصى بثلث ماله وثروته وهي معلومة ولا شك على سبيل الصدقة لعموم فقراء المسلمين وثلث لأولاده والثلث الأخير لمواليه.

هذا سلوك رجل رد على الدم الذي أراقته الروم بالدم ورد على المثلة التي فعلوها بالمسلمين بفتح ديارهم، وأكرم نساء المسلمين اللائي سُبينَ بالانتقام لهن.

ثم أمر بعد ذلك كله بإحراق كل ما بقي من دبابات وآلات حرب ومجانيق وكانت العلة في ذلك كما ذكر المؤرخون هي ألا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين!

لقد كانت راية الجهاد منصوبة للدفاع عن حرم المسلمين، والدفاع عن دمائهم وأعراضهم، ولو كانت إقامتهم خارج حدود الديار الإسلامية. لقد أدرك خلفاء ذلك الزمان الجميل أن الإسلام هو الرابطة التي ينبغي أن ينتصر لها من دون النظر إلى الجغرافية أو الأعراق.

فتح سرقوسة (رمضان ٢٦٤هـ= ٨٧٨م)

عرفت الأدبيات المعنية بالتأريخ للتشريع الإسلامي وفلسفته؛ أن واحدًا من دلالات الأمر الإلهي بصيام رمضان كان منصرفًا إلى كونه إعدادًا حقيقيًّا، وتمهيدًا بديعًا للتوصل إلى الأمر بالقتال، وهو ما يدعمه توالي الأمرين معًا في تاريخ التشريع، إذ نزل الأمر بصيام شهر رمضان، ثم أعقبه التشريع بالإذن بالقتال.

ومنذ هذا التاريخ والوعي الجمعي الإسلامي يربط بين هذا الشهر وبين تجليات النصر فيه، باعتبارهما من متلازمات القضايا في التصور الشعبي والثقافي عند المسلمين.

وهو الأمر الذي نحتاج إلى ترسيخه؛ لأن الانطلاق نحو تجديد وعي الأمة بمكانتها إذا انطلق من هذه الأجواء المنبثقة من شهر رمضان كان وعيًا جديرًا بأن يختزل المسافات وتقترب بالأمة الإسلامية من المثال الذي طالما عُرِفَ عنها في تاريخ الحضارة قديماً من أنها وهبت الإنسانية ما لم تستطع حضَارة أخرى أن تهبه لها.

وشهر رمضان في هذا العام ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م يأتي في أجواء تحتاج فيها الأمة إلى التذكير بعالمية رسالتها، وبأن اختلال التراتيب في قوائم القيادة، والسيادة بين الدول مما انعكاسه سيئ على عالمنا الإسلامي، لا يصح أن يهزمنا نفسيًّا، ولا يصح أن ينسينا أننا أصحاب رسالة تتجاوز حدودها المحلية والإقليمية؛ ذلك أن الإسلام في التصور القرآني والتاريخي دين عالمي بعث الله به محمدًا ﷺ للناس كافة!

ولقد فهمت الأمة كلها على امتداد جغرافيتها ذلك الأمر، واستمر حاضرًا في حركة نشره في العالم من خلال الفتوحات الإسلامية التي استمرت حتى هجوم الغرب على ديارنا مع حركة الاستعمار الأوروبية لبلادنا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

ومن أجل ذلك؛ فإن التوقف أمام فتوحات المسلمين للبلدان الغربية ربما يُسهم في دعم التذكير بعالمية هذا الدين من جانب، مقاومة لطوفان اليأس الذي يغمر قطاعات كثيرة من أبناء عالمنا العربي والإسلامي تحت ضغط التفوق الأمريكي والأوروبي معًا.

ولقد كان هذا الوعي بعالمية الرسالة ظاهرًا جدًّا مع بواكير الدعوة الإسلامية، ومن أمثلته الباكرة فتح سرقوسة.

وسرقوسة في الجغرافية العربية القديمة: «أكبر مدينة بجزيرة صقلية» على ما يقدره ياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢١٤، وقد رصد لها الجغرافيون القدامى ما يعكس تقدمها وعمرانها.

ومن المهم أن نذكر أن فتح سرقوسة كان مرحلة شبه مستقلة من حركة الحروب التي استهدفت فتح جزيرة صقلية كلها.

وفي هذا السياق ينبغي أن نتأمل مجموعةً من العلامات الدالة على خط حركة الفتوحات الإسلامية وما قدمته للإنسانية في النقاط التالية:

أولًا: برهن المسلمون عن وعيهم بعالمية رسالتهم في الأقطار كافة، وهو ما نلمحه من خلال معرفتنا بأن الذي تم له فتح سرقوسة كان هم الأغالبة بمعنى أن حركة الفتوحات الإسلامية لم تكن حكرًا على مسمى المشرق الإسلامي في يوم من الأيام، كما يحلو لبعض الدارسين أن يتصوروا أن حركة الفتوحات كانت حركة عربية قومية، على ما يشيع في كثير من كتابات المؤرخين المعاصرين الذين تشكلت أفكارهم في أثناء المد القومي!

ثانيًا: اعتراف مؤرخي الحضارات بالأثر الجبار الذي خلَّفه المسلمون في المدينة برمتها، وفي مدة وجيزة جدًّا على ما يقرره مثلا كارل بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية»؛ حيث يقرر ص ٢٤٩: «وفي الحق أن سنوات السلام التي قُدِّر للعرب أن ينعموا بها في صقلية (سرقوسة) منذ ذلك الحين كانت كافيةً لنشر حضارتهم، والتمكين لها في ربوع الجزيرة إلى درجة بعيدة، حملت النورمانديين الذين (خلفوا العرب في حكم هذه البلاد) على أن يأخذوا عن العرب نظامهم الإداري ويقتبسوا العناصر الأساسية للثقافة الإسلامية في حياتهم الفكرية والعينية أيضًا»، ففي هذه الشهادة التي يشهد بها واحد من أساطين الاستشراق الغربي كفاية في هذا السياق لإعادة التمكين لجلال الفكرة الإسلامية التي حركت الفتوحات بدافع ديني وحضاري معًا يستهدف الخير للبشرية.

وهذا الوجه المضيء هو الوجه الذي ينبغي أن نواجه به أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية في مواجهاتها للعالم الإسلامي.

ثالثًا: إن القدرة الحربية المبكرة التي مكنت دولة الأغالبة (من المغرب العربي) من فتح هذه الجزيرة بما فيها سرقوسة بحصونها الطبيعية والصناعية تعيد فتح ملف التقدم العلمي في أواخر القرن الثالث الهجري أي بعد ما يقرب من مائتي سنة فقط من عمر الدين الجديد باسم المعرفة الحديثة التي حازتها من فتح بلدان في عمق بحار عريقة جدًّا.

وهذه النقطة تعيينًا تفتح ملفًا مهمًّا ومهملًا معًا من جانب المعاصرين يتعلق بضرورة استثمار تخصص أصيل عُرِفَ في الأدبيات التاريخية والجغرافية باسم السفن الإسلامية، وهو تخصَص له تاريخه ومصطلحاته للدرجة التي صنفت فيها كثير من المعاجم التي تعترف بما كان للعرب من تقدم هائل في مجال صناعة السفن والبحار.

هذه ثلاث نقاط فقط تبعث على التأمل والعمل معًا من أجل إيجاد آلية لدعم ما يُسمَّى به دستور الوحدة الثقافية بين أبناء العالم الإسلامية على امتداد بقاعه الجغرافية، وهو الأمر الذي كان موجودًا في ظل غياب ما هو قائم الآن من ثورة في الاتصالات غير مسبوقة، وهذه الوحدة قد تجلت أبعادها في أن حركة الفتوحات الإسلامية صنعها المسلمون جميعًا، من المشرق العربي ومن المغرب العربي، من المسلمين ذوي الأصول العربية ومن المسلمين ذوي الأصول غير العربية معًا.

باسم الإسلام وحضارته ووحدة شعوبه تقدم الفتح لينعم العالم تحت ظلاله، وفي أجواء رمضان الذي هو شهر الله تعالى تمت هذه الفصول البيضاء الرائعة.

معركة ملاذ كرد (رمضان ٤٦٣هـ)

سيظل الصراع محتدمًا بين ممثلي الإسلام الذي آمنوا به واعتنقوه دينًا خاتمًا، جاء لتتويج رحلة طويلة من دعوة الأرض إلى الإيمان بالله، وتنسخ من جانب آخر ما سبق شرائع.. وبين ممثلي النصرانية الذين تربَّوا على عداوة الإسلام ولقّنوا منذ الصغر- ولم يزالوا يلقنون- أن الإسلام هو العدو الأزلي، يسوقهم إلى ذلك فريقان هما: رجال الدين الخائفون على سلطانهم الروحي وما يجلبه من منافع، ورجال السياسة الذين يرون في الإسلام تهديدًا لعروشهم.

لعل في معركة ملاذ كرد التي وقعت في رمضان سنة ٤٦٣هـ بين المسلمين ممثلين في دولة السلاجقة، وبين الإمبراطورية الرومية في قسمها الشرقي ما يؤكد ذلك الصراع المحتدم حتى الآن.

وملاذ كرد أو مناز جرد بلدة حصينة من بلاد آسيا على فرع نهر مرادس أشبه شيء بالقسطنطينية.

والمعركة- كما تروي الأدبيات التاريخية الإسلامية- بدأت بمغامرة تصور فيها رومانوس قائد الروم أنه قادر على تحرير أراضي روما الشرقية من سلطان الدولة السلجوقية التي امتدَّ سلطان الإسلام الروحي بفضلها على ربوع بلدان الإمبراطورية الرومية الشرقية، فحشد ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ أو ٢٠٠,٠٠٠ حسب الرواية الإسلامية.

واستطاع ألب أرسلان أن يخطف المبادرة بضربة حققت له تقدمًا أوليًّا في المعركة، غير أن ألب أرسلان على الرغم من طلائع النصر التي بدأت في الظهور ظلَّ جزعًا خائفًا من تفوق الروم عددًا وعدةً؛ مما دعاه إلى طلب الهدنة التي رفضها أرمانوس وفهم منها خوف المسلمين وتهيبهم لقاءَه، فرد عليه ردًّا يحمل قدرًا من السخرية والاستعلاء فقرر السلطان المضيَّ في المعركة، فصلَّى بجنده ظهر الجمعة، وبكَى وخضع خشوعًا وتأثرًا، ولبس البياض، وتحنَّط الجنود استعدادًا للموت في المعركة، فجاهد مكفَّنًا حتى أظفره الله تعالى على عدوِّه، وأسر أرمانوس الذي تكبَّر على المسلمين وسخر منهم عند طلب الهدنة.

وفي هذه المعركة تتجلَّى أمور كثيرة، أهمها: أنه لا يصح التردد لحظةً في دفع صائلة العدو المتقدم نحو ديار المسلمين بأية وسيلة؛ حمايةً لبلدان الإسلام وحمايةً لدماء المسلمين وإعراضهم، ويكون الدفاع إذًا فرضَ عين لا مجالَ للنكول عنه، وهو الأمر الذي قام به ألب أرسلان عندما رفض العدوُّ الهدنةَ التي عرضت عليه، فاستعان المسلمون بالله سبحانه وتعالى، ولم يرعَوا جانبًا أنهم أقل عددًا وأضعف جندًا، ولم يؤثِّر ذلك في اختيار توقيت المعركة وهو يوم الجمعة، وفي تفسير ذلك يقول ابن كثير في البداية والنهاية ١٦/ ٢٦: «وخاف من كثرة المشركين، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال «بعد الظهر» حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كانت المواجهة نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ومرَّغ وجهَه في التراب، ودعا الله واستنصره، فكان نصر الله تعالى».

في جنس الخبر تتضح ملازمة النظر العبادي لعمليات الجهاد، أيًّا كان جنس المجاهدين المسلمين، عربًا أو غير عرب، ثم تأمل استشارته للعلماء والفقهاء، التي طالما جلبت إلى الحضارة الإسلامية كل خير، ولم تغِب إلا وغاب معها كثير من الخير الذي كان.

لم يكن المجاهدون المسلمون يؤيدون الاستطالة بمعاركهم في الأرض، أو التكبر وتكوين الإمبراطوريات، يظهر ذلك في مشهد الذلة الرائع الذي صنعه سلطان المسلمين عندما نزل عن فرسه ومرَّغ وجهه في التراب؛ إعلانًا منه أنه متذلل لله سبحانه، عابد طائع له.

وإضافةً إلى ذلك استطاع الإسلام أن يؤسس أخلاق التسامح في كل الأجناس التي انتمت إليه، فعلى الرغم من شهرة الترك والتتر والسلاجقة العسكرية وقوتهم المادية التي دأب على تصويرها الغرب الصليبي؛ فإن مشهد أسر أرمانوس بين يدي الملك ألب أرسلان يدلك دلالة قاطعةً على تملُّك فضيلة التسامح في نفس المجاهدين المسلمين؛ حيث تحكي كتب التاريخ أنه لما وقف أرمانوس بين يدي الملك ألب أرسلان قال له: لو كنت أنا الأسير بين يديك ماذا كنت تفعل؟ قال: كل قبيح؟ قال فما ظنك بي؟ قال: تقتلني وتشهرني في بلادك، فعفا عنه الملك، هذا الموقف السامي يحمل في طياته أكبرَ ردٍّ على من يتهمون حركة الفتوحات وينالون منها.

لقد كان الجهاد عند المسلمين عبادةً، ولم يكن في يوم من الأيام استطالةً على أحد باسم القوة، ملكوا فسامحوا؛ لأنهم كانوا يسيرون باسم الله حقًّا، يريدون إسعاد الخلق بدلالتهم على ربهم.

معركة الزلاقة (٤٧٩هـ=١٠٨٦م)

كانت العالمية التي غلبت على وصف رسالة الإسلام، بوصفها إحدى خصائصه الكبرى التي سجلها له مؤرِّخو الحضارة الإسلامية والمتخصصون في شريعته تجليًا ظاهرًا في سلوك الدول الإسلامية التي تعاقبت على قيادة الأمة الإسلامية، المتمثل في إعلان الجهاد من أجل تبليغ كلمة الله سبحانه وتعالى.

وبالإمكان التأريخ لممارسات هذا التجلي لمفهوم العالمية الإسلامية بزمان النبوة نفسه في ممارسات من مثل حادثة الإسراء والمعراج التي تمَّت في الفترة المكية من عمر رسالة النبي ﷺ أو بعثته، في أول رسالة تتخطَّى حاجز الدائرة العربية، وتتجاوز حدود الجزيرة العربية، كما يمكن ملاحظتها كذلك في بعث أسامة- رضي الله عنه- الذي جهزه النبي ﷺ للخروج إلى الروم وإن لم يتم إنفاذ ذلك البعث إلا فيما بعد في خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه، لكنها إشاراتٌ واضحةٌ على فكرة العالمية وتطبيق عملي على مفهوم الهيمنة الثابت للكتاب العزيز، ومن ثم للأمة المتعبدة بالاحتكام له.

واستمر ذلك السلوك العملي حاكمًا لمسيرة الحضارة الإسلامية فيما عُرف اصطلاحًا في لغة التأليف التاريخي عند المسلمين باسم الفتوحات الإسلامية.

وقد كان شهر رمضان مسرحًا وقعت فيه كثير من انتصارات المسلمين في أنحاء كثيرة من الأرض، ونحن حريصون على إشاعة هذه المعارك على التعيين؛ لنؤكد أن الصيام بما لابسه من أجواء روحية صافية لم تمنع المسلمين أن يقوموا بأعباء الجهاد العظيمة والقاسية، وهو درس

بالغ نبرزه لنحاصر به ممارسات رديئة شاعت في المجتمعات المسلمة في الأزمنة الأخيرة.

وربما حرصنا على تجلية هذه الانتصارات التي شهدتها رمضانات مختلفة متنوعة عبر عمر الأمة الإسلامية المديد لنفسِّر وجهًا إنسانيًّا وحضاريًّا صبغ كثيرًا من الممارسات الراقية، دوَّنتها الأدبيات التي أرَّخت لهذه المعارك؛ لنؤكد بها من جانب آخر تعانق الديني والدنيوي في فهم الأمة للإسلام؛ مما يكذِّب دعاوَى دعاة الفصل بين الدين والسياسة ممن يُسمَّون بالعلمانيين، فالصيام شأن رباني خالص على الأقل بموجب النص الصحيح الذي يقول «أما الصوم فهو لي وأنا أجزي به» والحديث قدسي صحيح واللفظ للإمام مسلم هذا جانب مجلاه الأعلى في شهر رمضان، ومن جانب آخر فإن الجهاد أمرٌ إلهي، تعانق في كثيرٍ من الأزمان بالصوم في شهره الشهير.

ومن المواقع الشهيرة التي وقعت في هذا الشهر ذي المنزلة الرفيعة موقعة الزلاقة، يفتتح المؤرخ ابن العماد الحنبلي أحداث سنة ٤٧٩هـ في كتابه الشهير شذرات الذهب (٤/ ٣٦٢ طبعة دار الفكر سنة ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م) « فيها كانت وقعة بين الأدفوش والمعتمد بن عباد ومعه الملثمون، فأتوا الزلاقة من عمل بطليموس، فالتقى الجمعان، فوقعت الهزيمة على الملاعين، وكانت ملحمة عظيمة في أول جمعة من رمضان، وجرح المعتمد عدة جراحات».

وفي هذا الوصف الموجز تبدَّت علامات دالة يمكن تأملها، والتلبث أمامها، منها أن الزلاقة موضع من الأندلس كما يقرر البلدانيون أو الجغرافيون المسلمون، وعلى رأسهم ياقوت الحموي في معجم البلدان، وهو ما يعني أن محاولات الانقلاب على الإسلام في الأندلس قديمة جدًّا، وأن الخلافة الإسلامية لم تزل قوية قادرة على دحر المتمردين من

نصارى أوروبا، وهو أمر يلزم التنبه له في العصور الحديثة، ولا سيما في البلدان التي فتحها الإسلام، وكان يسبقه فيها نصارى، ذلك أن كثيرًا من هذه البلدان يؤجِّجون في كثيرٍ من الأحيان كلامًا شبيهًا بما دار في أجواء الأندلس قديمًا.

أضف إلى ذلك عناية الأنظمة الحاكمة بمسألة الجهاد وصدّ العدوان، وتجلي ذلك بحسبانه من أعلى الأولويات في قائمة مشاغل الحكم، وهو التطبيق العملي لمفهوم الخلافة في التراث الفقهي عند المسلمين، الذي يُعنى ويهتم برعاية مصالح الناس الدنيوية والأخروية، وهو ما تبدَّى بوضوح شديد في خروج المعتمد بن عباد نفسه على رأس الجيوش المجاهدة وانخراطه في القتال حتى عاد جريحًا.

كما ظهر- من خلال وصف ابن العماد للأعداء بالملاعين- المعيار الحاكم في تقييم العلاقة مع الآخر الذي هو هنا عدوٌّ مخالف في الدين والعقيدة، وهو معيارٌ مهمٌّ جدًّا في العلاقات الدولية، حكم علاقات دول الإسلام في تاريخها الطويل وغيابه في محددات العلاقة في التاريخ المعاصر يؤذن بكوارث وهزائم لا حصر لها، ومن هنا فإن أي تغييب للدين في علاقاتنا الخارجية سيجرُّ علينا خسائر مروّعة، وهذا الحضور للدين في أدبيات الحركات الإسلامية المقاومة في كثير من بقاع العالم الإسلامي المشتعلة واحدٌ من أهم ما يقيها السقوط والتنازل وتضييع الحقوق الإسلامية إذا ما قورنت بالحركات العلمانية، كما أثبتت كثير من الدراسات الإستراتيجية.

كما تعكس هذه الموقعة أمرًا آخر خطيرًا جدًّا، وهو آثار الوحدة في قوة العالم الإسلامي، وهو الذي فطن له القوى الغربية فعملت على تفتيت العالم الإسلامي إلى كيانات صغيرة بعدما تعاونت هذه القوى على إسقاط الخلافة العثمانية.

نقول ذلك لأن الأجواء التي سبقت المعركة كانت تشير إلى اضطهاد بشع مفروض، تبدَّت مظاهره في الاعتداء على الأنفس والأموال، يقول الأستاذ محمد عبد الله عبد الرحمن- رحمه الله- في كتابه (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام) ص ٢٥٣ إن المرابطين عبروا من عدوة المغرب بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين؛ غياثًا لأمرائها وللإسلام، ونشبت بين الجيوش النصرانية المتحدة وبين المرابطين وجيوش الطوائف معركة الزلاقة الشهيرة.

هذا وجه مما كان يحكم الأنظمة الإسلامية في تاريخ المسلمين، وهو غياث المسلمين والإسلام، ولم يغب عن كبار المؤرخين المعاصرين الوجهة الدينية التي تحكم الصراع بين العالم الإسلامي والمعتدين على دياره ومقدساته، وهو الوجه الذي يسعى كثير من المثقفين العلمانيين إلى طمسه وتغييبه.

وتأمُّل الطريق الطويلة التي سلكها يوسف بن تاشفين وجيوشه يدلُّك على مدى الجهد الذي بذلته دولته في استنقاذ المسلمين وديارهم من أعدائهم النصارى الطاغين؛ إذ عبرت الجيوش من المغرب إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى أشبيلية ثم بطليموس، ومنها إلى الزلاقة، وهي مسافة شاسعة جدًّا على الأقل وفق الجغرافية القديمة.

وليس صحيحًا أن الإغاثة كانت لتوسيع رقعة دولة الموحدين.. ذلك غير صحيح، بدليل أن عمليات الإنقاذ تمت ثلاث مرات، لم يستقل الموحِّدون بحكم الأندلس إلا بعد المرة الثالثة عندما تأكد لهم عجز الطوائف عن حماية أرض الإسلام بالأندلس، وكان ذلك بعد وقعة الزلاقة بما يقرب سبعة عشر عامًا أي في سنة ٤٩٦هـ = ١١٢٣م.

موقعة حطين (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)

إن الوقت الذي احتل فيه الصهاينة أرض الله المباركة في القدس هو الأقْصَر في تاريخ تعرض هذه الأرض للاحتلال في الزمن الطويل الذي سبق!

وهذه الحقيقة التي نسوقها في مفتتح قراءتنا لواحدة من كبريات حادثات الإسلام في تحرير مقدساته والعمل من أجل صد العدوان عليها لا نهدف من ورائها إلى تحرير الشعور المعاصر أو إصابة عزمه والنَّيل منه، والاقتراب به من دائرة الكسل أو الخور والعجز، وإنما المراد من وراء سوقها أن نطرد هواجس اليأس من نفوس الناس، وأن نطمئن قلوب العاملين من أجل تحرير المسجد الأقصى، بأن الله سبحانه وتعالى ولا شك مكلِّلٌ جهادَهم ومانحُهم فضلَه ومؤتيهم ثمرةَ سعيهم نحو تحريره وإنقاذه من براثن يهود!

كان ذلك صحيحًا إذا عرفنا أن تحرير بيت المقدس الذي تحقَّق كأثر من آثار حطين كان بعد ما يقرب من قرن كامل!

يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) في أحداث سنة ٥٨٣هـ: «فيها كانت وقعة حطين التي كانت أَمَارةً ومقدمةً وبشارةً لفتح بيت المقدس على المؤمنين واستنقاذه من أيدي الكافرين».

وقد تكرر في أحداث هذه الوقعة ما نصرُّ على التحذير منه والاحتياط لمعالجته، وهو غدرُ نصارى الشرق عندما يهاجم بعدد من الغرب متسلِّحين بالصليب، وهو ما سيتطلب المناقشة والمعالجة، ولا سيما بعد التنادي والانتصار لمفهوم المواطنة.

وقد أسفرت أحداث هذه المعركة عن الاستفادة من الإستراتيجية العسكرية الإسلامية، من خلال دراسة السيرة النبوية، فلقد كانت مقدمات النصر في حطين أن نزلت الجيوش- بما فيها جيش مصر- بالقرب من الماء كما حدث قديماً مع بدر.

إننا بالإمكان أن نقرِّر أن كثيرًا من هزائم المسلمين أو تأخير انتصاراتهم كانت سبب كثير من خيانات الداخل من أصحاب الملل الأخرى، وإن كثيرًا من انتصارات المسلمين قديماً كانت أثرًا من آثار الوحدة والاجتماع، فلقد آمن قادةُ هذا النصر بأن القضاء على التمزُّق وتوحيد أطراف الأمة هو السبيل الأساسية في طريق تحقيق طرد العدو والتغلب عليه، وهو ما سعى إليه صلاح الدين أولًا.

لقد تلخصت خطة صلاح الدين في الأمور التالية:

١- السعي نحو توحيد الإمارات، فضم مصر والشام والجزيرة الشامية كلها في مدة أربع سنوات.

٢- نشر ثقافة الجهاد استنفارًا وحثًّا، وهو ما ينبغي أن تستعد له المؤسسات التعليمية المعاصرة ويدرج ضمن المقررات التعليمية.

٣- التجهيز والاستعداد، ولا سيما أن الحروب الصليبية متوالية قريبة منه وهل ليس ثمة أعداءٌ بالقرب منا؟!

ولقد تجلَّت مجموعة كبرى من علامات لا يصحُّ تفويتها بعد النصر الذي حققه صلاح الدين، وهي كافية في التدليل على المنظومة الأخلاقية الحاكمة في بنية الإسلام التشريعية.. يقول محمد عبد الله عثمان في التعقيب على هذا النصر الكبير: «وأبدى صلاح الدين في تحصيل الفداء منتهى

التسامح، ولم يدخل خزائنه سوى القليل، لقد كان دخول المسلمين بيت المقدس على هذا النحو السلمي المنزَّه عن ارتكاب الإثم وإراقة الدماء صفحةً مشرقةً ناصعةً».

إن النصر الذي تم على إثره تطهيرُ البيت المقدّس في القدس كان ثمرةً منطقيةً لعوامل كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي:

١- وحدة الأمة.

٢- توافر بطل عظيم الاقتناع بالفكرة الإسلامية.

٣- التخطيط والاستعداد والتجهيز.

ومن ثم؛ فنحن نؤمن إيمانًا عميقًا كما تبدَّى من قراءة أحداث هذه المعركة أن أيَّ تحرك أو أي مشروع نهضوي يتوخَّى أي صفة غير الصفة الإسلامية والتحول بهذا التحرك نحو أيِّ باعث قومي أو عنصري أو إقليمي سيقود إلى التجرد من الشرف وسيقود إلى الإخفاق المروِّع!!

إنا في أمسِّ الحاجة إلى أن نُعلي من أمر ما فعله صلاح الدين، وتمثَّل في حقن الدماء وعفوه عن أسرى الصليبيين.

ومن العجيب أن نرى أن قيام دولة لـ«إسرائيل» في فلسطين صورة مجددة مطابقة لأجواء احتلال القدس قديماً، وإقامة مملكة فرنجية صليبية.. عنف يهودي حديث ربيب عنف صليبي قديم، وتذرّع بأساطير توراتية حديثة من رحم أساطير صليبية قديمة، وتعاون عالمي لإمداد «إسرائيل» بالعون وضمان تفوقها العسكري سائر على خطى الإمداد القديم من شعوب أوروبا لحملات الصليبيين ثم- وهذا هو المحزن حقًّا- عالم

عربي ممزَّق كما كان العالم العربي القديم ممزَّقًا قبل توحيد أركانه على يد صلاح الدين.

إن حطين درسٌ لليائسين أو المقرَّبين من حافة اليأس، تدعو الأمة كلها أن تحلَّ مسألة تحرير فلسطين على قمة واجباتها، والطريق واضحة مرسومة في عنوانات محددة، هي: الوحدة، والتعاون، والوعي بخطر العدو، والإيمان العميق بالفكرة الإسلامية.

موقعة المنصورة (٦٤٨هـ= ١٢٥٠م)

لم تزل مصر حائطَ الصد الأخير! فهل وعى العالم العربي والإسلامي هذه الحقيقة؟ وهل وعت الأنظمة المصرية هذه الحقيقة؟ وهل تبدَّت ملامح مقنعة من ممارسات الغرب الطامح في التوسع والطامع في إنشاء الإمبراطوريات تجاه التعامل مع هذه الحقيقة؟!

هذه أسئلة كثيرة كافية في الدلالة على أن مصر ما زالت حائط الصد الأخير، يفجِّرها انكسار التتار في مصر، وانكسار الحملات الصليبية في نسختها القديمة في مصر في أشهر مواقع الاندحار الصليبي في معركة المنصورة.

ولا يصح أن ننظر إلى انتصار المصريين في هذه المعركة على أنه صفحة من تاريخ مصر القومي فقط، فهذا صحيح، كما أنه صحيحٌ كذلك أنه كان صفحةً من تاريخ الإسلام العام كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عثمان في كتابه (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام) ص ١٤٣:»

والحق قاضٍ بأن يقرر أن مصر كانت أسبق البلدان الإسلامية في ردِّ الصليبيين، وموقعة المنصورة هي التمهيد، أو قل هي المرحلة التي أذنت بانتهاء الحروب الصليبية قبل أن ترجع أوروبا فيما بعد لغزو العالم الإسلامي فيما سُمِّي بالاستعمار!

وقد افتتحت بها أحداث سنة ٦٤٨ هـ، يقول ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب) ٥/ ٢٣٩: «استهلت والفرنج على المنصورة، والمسلمون بإزائهم مستظهرون، لانقطاع المسيرة عن الفرنج، ولوقوع المرض في خيلهم، ثم عزم ملكهم ألفونيس على المسير في الليل إلى دمياط، ففهمها المسلمون،

وكان الفرنج قد عملوا جسرًا على النيل، فنسوا قطعةً، فعبر عليها الناس، وأحدقوا بهم فاجتمع إلى الفونيس خمسمائة فارس، وحملوا على المسلمين حملةً واحدةً، فخرج لهم المسلمون، فلما صاروا في وسطهم أطبقوا عليهم فلم ينجُ منهم أحد، ومسكوا الفونيس- أسره سيف الدين القيمري باني المارستان في صالحية دمشق، وانهزم جل الفرنج على حمية، فحمل عليهم المسلمون، ووضعوا فيهم السيف، وغنم الناس ما لا يحد ولا يوصف، وأركب الفونيس في حراقة والمراكب الإسلامية محدقة به، وكانت ساعة عجيبة واعتقل الفونيس بالمنصورة، وكان الأسرى نيفًا وعشرين ألفًا، فيهم ملوك وكبار».

هذا موجز لأحداث واحد من أيام الإسلام الكبرى، التي انكسر فيها الصليبيون بتدبير من امرأةٍ معدودةٍ لدى الأثبات من مؤرخي العصر الحديث بداية دولة المماليك، وهي شجرة الدر، التي استطاعت أن تهيئ الأجواء السياسية الداخلية بعد وفاة زوجها الصالح أيوب؛ إذ أعانت ابنها توران شاه، ولبث الأمر مدةً حتى تولت هي الحكم ببيعة تم بعدها النصر.

لقد نشأ المماليك على حب الإسلام والدفاع عنه، ولم يكونوا جندًا مرتزقةً كما يحلو لبعض مبغضي الحضارة الإسلامية أن يصوِّروا أمرهم.

لقد تبدَّت في هذه المعركة قوة الجيوش الإسلامية، وتبدَّى أن كان للمسلمين أسطول بحري كما ظهر في خبر إحراق السفن والحرَّاقات بمشهد أسْر الفونيس، والحراقة التي أركبها قائد الفرنج أو قائد الحملة الفرنسية السابقة مصطلح عسكري، يعني السفن الحربية التي ترمي بالنيران، وكانت مجهزةً بمرامي نيران لقذف العدو، وكانت تستعمل في البحر المتوسط وفي النيل، ومن وصفها يظهر أنها كانت بمثابة سفن

للحماية، بمعنى أنها كانت أراضي للسفن الحربية الكبيرة، كما ذكر أنها كانت تستعمل في البحر الأحمر معنى ذلك أن الأسطول الحربي للدولة الإسلامية في مصر كان موزعًا على المياه كلها شمالًا (البحر المتوسط) وشرقًا (البحر الأحمر) وفي داخل البلاد (في النيل) وهو ما تبدَّى في الدفاع عن العمق المصري في استرداد دمياط وحماية المنصورة (كما جاء في معجم السفن الإسلامية لدرويش النحيلي) وهذا الأسطول هو ما سوف تتآمر عليه الدول الاستعمارية فيما بعد للقضاء عليه وتدميره.

ومن الملاحظ كذلك وهو ما نحرص على تأكيده وإبرازه استيعاب المسلمين جميعًا في حركة الجهاد قيادةً وجنودًا، فالمصريون بجوار الشوام بجوار المماليك القادمين من أواسط آسيا والهند وغيرها جمع بينهم جميعًا رحم الإسلام!

كما تبدى في هذه المعركة استثمار كافة الأسلحة ومن تحليل أحداثها نلمح استثمار انقطاع المواد التموينية، مما كان له أثر في استظهار المسلمين، ومن التخطيط الذي ظهر في خطة الانقضاض على فرسان الفرنج، كما ظهر حسن معاملة الأسرى إذ جاء في أحداث نهاية المعركة ولا سيما بعد مقتل توران شاه الذي كان قد أمَّن لويس التاسع وتولي شجرة الدر إذ طُرِحَ أمره للمناقشة من جديد وظهر ميل نحو قتله، فذكَّرهم بعضُ القَادة المسلمين أنه لا يُغدر به!

على أن فيما رواه ابن كثير الدمشقي في كتابه (البداية والنهاية) ١٧/ ٣٠٧ من ملابسات أحداث هذه المعركة ما يسترعي الانتباه لتكراره في مواطن كثيرة عبر تاريخ المسلمين الطويل يقول: «كانت النصارى ببعلبك فرحوا حين أخذت النصارى دمياط».

وهذا حادث تكرر كذلك فيما يعلمه الجميع من بعض أتباع المعلم يعقوب إبَّان حركات الاحتلال المتأخرة على مصر؛ مما يُثير تساؤلات كثيرة حول انتماء النصارى والأقليات في بلدان العالم الإسلامي وعن دور الكنيسة في تربية رعاياها في داخل البلدان الإسلامية.

لقد عاشت النصارى في البلدان الإسلامية كأسعد أقلية في العالم، وعلى الرغم من ذلك تكررت أمثال هذا الحادث.

إننا ندعو مخلصين إلى مراجعة مناهج التعليم الديني للنصارى في العالم الإسلامي، وندعو مخلصين إلى مراجعة برامج التربية الكنسية ودورها في غرس الانتماء لدى شعوب الكنائس في ظل تنامي الدعوة إلى المواطنة.

هذه المعرفة وأمثال لها كثيرة جدًّا تُفجِّر سؤالات كثيرة عن كثير من التهم من قِبل العلمانيين المصريين على تخلف المجتمع الإسلامي إبَّان عصر المماليك، وها هو التاريخ يثبت تفوقهم على الغرب في كثير جدًّا من المجالات جلاها التفوق العسكري الذي هو محصلة تفوق في ميادين متنوعة.

إن كثيرًا من الحقائق التي زوَّرها العلمانيون في قراءتهم لتاريخ الأمة الإسلامية في حاجةٍ إلى مراجعات، وهو بعض الواجب الذي تفرضه قراءة أمثال هذه المعركة في الأدبيات التاريخية لدى المسلمين.

ولقد تعاون الغرب وفتحت أراضي بلاده المختلفة في التعاون على غزو بلاد الإسلام، وهو بعض ما يقوله خط الحملة الصليبية التي انطلقت من فرنسا عن طريق المسارات القبرصية في طريقها إلى مصر، وهو ما يحتم ضرورة التنبه لعلاقاتنا الخارجية، ولا سيما إبَّان النزاعات والصراعات وقت اشتعال الأجواء.

ويقول كذلك الأستاذ عبدالله عثمان في (مواقف حاسمة) ص١٤٤:
ولعل بما كتبه يرد أبلغ رد على الذين يريدون نفي الصلة بين الحروب الصليبية وخلفيتها الدينية التي حركتها إنما كانت تحفز (لويس التاسع) قبل كل شيء رغبة مضطرمة في العمل في سبيل الدين وإعلاء كلمته وإنقاذ الأرض المقدسة من حمولة الإسلام تسيره عواطفه الدينية، ولم يكن في سياسته سوى معبر عن مقاصد الكنيسة ومنفذ لمشاريعها، وفي الوقت نفسه ينبغي أن يكون لمصر المعاصرة ما قامت به مصر قديماً من دور تاريخي في رد الخطر الصليبي عن مصر والشرق، وفي حماية الإسلام والمدَنية الإسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية على حدِّ تعبير المؤرخ الكبير.

عين جالوت (٦٥٨هـ= ١٢٦٠م)

هذا أثر دالٌّ على قدرة الأمة على استعادة حيويتها، والقيام بواجبها في صد العدوان، وهذا أثر دالٌّ كذلك على القيمة الجغرافية والسياسية والعسكرية والحضارية لمصر، ذلك أن التخريب والدمار الذي ألحقه التتار بالعالم الإسلامي في زحفِه عليه كان كبيرًا ومروِّعًا، ارتكب فيه مِن القتل والغصب والحرق وتدمير المكتبات وما يندَى له جبين التاريخ ما هو كفيلٌ مع أمة أخرى غير أمة الإسلام أن يمحوَها من التاريخ جملةً وتفصيلًا، حتى إن تقديرات مؤرِّخي الحضارة يقدِّرون ما تم إعدامه من المؤلفات يفوق المليونين عدًّا!!

وهو ما نعتقد اعتقادًا جازمًا أن له أثرًا بالغًا في تأخر وضْع الفكر الإسلامي فيما تلا القرن السابع الهجري، وهو ما ينبغي أن نتأمله ونقيس عليه صنيع قوات الاحتلال الأمريكي المعاصر للعراق، وما تم من تدمير للمكتبات ونهب للمتاحف، وما يزال الطريق مفتوحًا من العراق فالشام إلى مصر!!

يقول ابن العماد الحنبلي في أحداث سنة ٦٥٨هـ: «في المحرم قطع هولاكو الفرات ونهب حلب»، وهذا الذي اختزل في كلمات يسيرة عما حدث ووقع من هولاكو وجنوده، لا يصح أن يمر في سهولة؛ إذ الذي حدث كبير ومروّع، وأمثال له ما تزال تقع إلى اليوم.

على أن المهم جدًّا أن نتأمل ما أورده المؤرِّخ الشهير عن دور المصريين في صدِّ التتار يقول ٥/ ٢٩٠ :»وأما المصريون فتأهبوا وشرعوا في المسير من نصف شعبان، وثارت النصارى بدمشق، ورفعت رؤوسها، ورفعوا

الصليب، ومروا به، وألزموا الناس بالقيام له، (و) في الثاني والعشرين من رمضان، ووصل جيش الإسلام وعليهم الملك المظفر وعلى مقدمته ركن الدين البندقداري، فالتقى الجمعان على عين جالوت غربي بيسان، ونصر الله دينه، وعيَّد المسلمون على خير عظيم».

في هذه السطور القليلة التي أوجزت في التأريخ لواحدة من كبريات حادثات الإسلام علاماتٌ كبرى لا يمكن إهمالها، وهي:

١- وحدة الأمة جغرافيًّا وبشريًّا، وهو ما تبدَّى جليًّا في تحرُّك الجيش المصري من أرض مصر ليلاقي التتار بعين جالوت بالقرب من بيسان في فلسطين قريبًا جدًّا من القدس، وكذلك ظهر في قيادة الجيش الإسلامي في مصر؛ إذ كان على قيادته قطز غير المصري أيضًا، والبندقداري بيبرس وهو غير مصري كذلك، لكنهما تولَّيا قيادة جيش الإسلام المصري، بحسبانهما يحملان جنسية، ومحور الترابط بين الجميع هو الجنسية الإسلامية!!

٢- تقدير الأمر حق قدره؛ وهو ما دعا الجيش للخروج إلى ملاقاة التتار؛ لأن سقوط مصر كان يعني نهاية الإسلام في المنطقة كلها، ولا سيما إذا راجعنا خطوط السير التي سار فيها التتار؛ إذ رفعت هذه الجيوش على سمرقند وبلخ وكابل وبخارى، وغزنة ومرو وهراة ونيسابور وجرجان والري وقم وقزوين وأذربيجان وكرمنشاه وبغداد وسامراء والموصل وحلب وحمص ودمشق، ثم كان صدّ المصريين لهم في عين جالوت، فهذا الطريق الطويل الذي دمّر فيه التتار مواريث الحضارة كان يستدعي تقدير الأمر وإعطاءَه حقَّه وتقرير الخروج؛ حمايةً لمصر من الدمار؛ باعتبارها يومئذ- وإلى الآن- قلب العالم الإسلامي، وهذا الذي حدث في حاجة إلى مقايسته على ما حدث في بعض حروبنا المعاصرة التي مُني فيها النظام المصري بانكسار فادح!

٣- الدين أم المواطنة؟ أو ما هو سياج الأمان؟

لقد تكرر في الأدبيات التاريخية في التأليف العربي والإسلامي الإشارة إلى انتشار النصارى بدخول النصارى أو غيرهم من غير المسلمين إلى بلاد الإسلام، حدث ذلك مع تقدم التتار وزحفه؛ مما كان من شأنه ما قصَّه علينا العماد الحنبلي من استهزاء النصارى واستطالتهم على المسلمين، وقهرهم على تقديس الصليب؛ بسبب من انتصارات التتار على المسلمين، وهو الأمر الذي تكرر خلفًا بعد ذلك في أثناء الحملات الصليبية، وفي أثناء الحملة الفرنسية والاحتلال الإنجليزي لمصر ولغيرها!

وكل هذه الأحداث تفجِّر سؤالًا خطيرًا لم يعالَج في كل معالجات الشأن العام اليوم في مناقشة قضية المواطنة؛ لماذا لم تحم فكرة المواطنة نصارى ذلك التاريخ القديم والحديث من هذا التورُّطَ المهين والمشين معًا في ردغة الخيانة ووحلها؟!

ولماذا لم تفتح هذه الملفات في أثناء مناقشة المواطنة في الوضع الراهن؟ وهل ما حدث من حرق لكنيسة مريم، والانتقام من نصارى هذا الزمان مما يروَّج له في كتابات العلمانيين المعاصرين يمكن أن تقرأ بمعزل عن خيانات هؤلاء النصارى في أثناء تعرض الديار الإسلامية للاجتياح؟ المسألة في حاجة ماسة إلى الترتيب في المناقشة!

٤- الالتفاف حول المشكلات الكبرى (مشكلات الهوية) قادرة على إصلاح الأوضاع الداخلية القلقة، لقد أجمع مؤرِّخوا هذه المرحلة أن مصر كانت تعيش ظروفًا قلقةً من الانقسام والاختلاف، وأمام وضع دقيق يتمثل فيما ترامى إلى مصر المنقسمة من أنباء مروِّعة عما لحق حواضر الإسلام في زحف التتار، استطاعت مصر أن تتجاوز

تلك الظروف الدقيقة الصعبة لكي تواجه مخاطر الاقتلاع والضياع، يقول الأستاذ محمد عبد الله عثمان في مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (١٦٦) وكان السلطان يشعر شعورًا عميقًا بخطورة المهمة التي يواجهها ولم يكن يرى في تدفق الغزو التتري نحو مصر إلا نوعًا جديدًا من الخطر الصليبي يجب أن يسحق كما سحقت الحملات الصليبية.

هذا الإحساس المتنامي في داخل القيادة القديمة يضع أمامنا مقاييس الأمر في ضوء التدفق الأمريكي نحو المنطقة التي تدفَّق نحوها قديما الغزو التتري، وهو ما يحتاج من المؤسسات والأفراد الموجّهة للرأي العام والمقرَّبة من دوائر اتخاذ القرار أن تهيِّئ الأنظمة للشعور الحقيقي بخطورة الأمر في الوقت الراهن، كما شعرت به القيادة السياسية عصر الغزو التتري، مع توافر العلامات التي توافرت سلفًا.

إن من المهم جدًّا أن يقدر القارئ الكريم أن صدَّ مصر للغزو التتري كان له أثره الحميد على تاريخ المدنية كلها؛ ذلك أن هذا السيل التتري المخرَّب كان ينذر باقتحام المشرق إلى المغرب ولو اجتاح التتار مصر لاجتاحوا المغرب والأندلس، وربما أوروبا، وانهارت صروح المدينة كلها، ولكن مصر استطاعت أن تنقذ الإسلام والمدنية كلها بما فيها المدنية المسيحية!

ومصر اليوم- وهو ما يجب أن يذاكره الشعب المصري وتقدِّره الحكومات المصرية- منوط بها أن تستعد لحماية المدنية، ولا سيما في أجواء الغزو الأمريكي على المنطقة، وبعدما مارسته من تخريب لمقدرات الآداب والعلوم في مكتبات العراق ومتاحفها!!

ثم إن غزو التتار أدى إلى اختفاء الدولة التي كانت تستقر في بغداد وما يترتب على ذلك من تخريبها ومن سحق العلوم والآداب، وإحلال مصر محلها في رياسة التفكير الإسلامي نهائيًّا! وعلى مصر أن تستعد لاحتلال الموقع ذاته من سقوط بغداد وانتهاءً بها في العصر الحديث!

إن الأمر يحتاج إلى عمل شاقّ ورشيد وحذر، وهي أوصاف لازمة على مصر أن تحتاط لتحقيقها، وأن تحتشد لأداء دورها، ومصر التي ندعوها أجلّ من أن تنحصر في نظام فحسب!!

نهاية الصليبيين في العصور الوسطى (رمضان ٦٧٥هـ= ١٢٧٦م)

ما بين بدء التصدي للحملات الصليبية على يد عماد الدين زنكي في حلب سنة ٥٣٢ هـ= ١١٣٨م، وما بين طردهم نهائيًّا على يد الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ= ١٢٧٦م، ما يقرب من قرن ونصف القرن، وفي هذا وحده من الدلائل على خلل الرؤية لدى الذين أصابهم اليأس من جرَّاء إحدى وستين سنة فقط هي عمر النكبة الفلسطينية التي هي في الحقيقة حلقة من حلقات الحملات الصليبية في العصر الحديث.

هذا صوت افتتحت به الحديث عن تحرير الأرض الإسلامية من دنس الحملات الصليبية المتقدمة؛ لأنه الصوت الأهم في هذا السياق المعاصر الذي يضغط على مشاعرنا وعقولنا، ويوشك بسبب من أن يعود كثيرًا من الفصائل والنخب والأفراد، وأن يستسلموا ويفرطوا في القضية العادلة لبلادنا الإسلامية.

قرن ونصف القرن من رمضان سنة ٥٣٢هـ إلى رمضان ٦٧٥هـ والتضحيات لتحرير الأرض لا تتوقف، والدماء الذكية تروي الأرض، وترضي السماء والأسماء الجليلة، والأحساب العريقة، والأصول الإسلامية من عرب وعجم تسطر بطولات الشرف الذي لا يدانيه شرف آخر.

كل هذا ينبغي أن يكون على ذكر من المعاهدين قبل أن يقعوا فريسة لليأس، ويضيعوا فلا دنيا يكسبون ولا آخرة.

وتقرر الأدبيات التاريخية أن حركة الجهاد ضد الصليبيين والتتار استمرت سنوات طويلة، واستردت مدنًا وقلاعًا وفتحت أخرى، وهو ما نقرؤه في البداية والنهاية لابن كثير (طبعة ١٧/ ٥٢٤ وبعدها)؛ حيث

يقرر أنه بدءًا من المحرم من هذه السنة بدأت التحركات، وكان في القمة منها شهر رمضان إذْ بدأت التحركات لفتح البلسين وقيسارية من بلاد الروم (تركيا)، ومن المهم هنا أن نتوقف أمام الملاحظات التالية:

أولًا: انشغال القيادة السياسية بأمر الفتوحات تخطيطًا وقيادةً ومشاركةً، وهو ما قررته الأدبيات التاريخية من حمل السلطان الظاهر نفسه، ومشاركته في معارك هذا الفتح، وهو الأمر الذي يعكس وعي الدولة الإسلامية في العصور المتعاقبة بوظائفها ومهامها.

ولعل من المفيد أن نقرر أن مشاركة السلطان الظاهر في المعارك فضلًا عما يعكسه من وعي بطبيعة وظيفة رأس الدولة في التاريخ الإسلامي، عكست مسألة أخرى مهمة جدًّا أترك للقارئ الكريم تقديرها عندما أنقل له أن وفاة الظاهر كانت في العام التالي أي سنة ٦٧٦هـ، وهو ما يعكس معنى خطيرًا جدًّا أن الملك حتى في هذه الأجواء التي طالما حاول العلمانيون المعاصرون تشويهها لم يركن إلى الراحة أو الدعة واستثمار امتيازات خاصة، وهو الأمر الذي ينبغي علينا أن نُحسن عرضه، المنادين للفكرة الإسلامية وعلى المتخوفين من تنامي تقدمها في الحياة المعاصرة.

ثانيًا: يظهر في أجواء هذه الفتوحات التي تمت طرد الصليبيين والتتار من الأراضي الإسلامية، وضمت إليها بلدانًا أخرى ذكرت سلفًا الدور العظيم للحركة العلمية على اختلاف تخصصاتها شرعية بما لها من دور إنهاض الجهاد ودعم أجواء العدل المحقق للنصر من جانب، وغير الشرعية التي أظهرت تطوير الكثير من الأسلحة التي واجهت بها الآلة العسكرية الغربية، وهو ما أدَّى إلى تطوير كثير من مفردات الآلة العسكرية الغربية، وتُظهر أدبيات هذا العصر مدى التقدم الذي أحرزه علماء المسلمين في هذا الميدان، وهو ما يفسر بروز أسماء معروفة من العلماء أرَّخوا لهذا التطوير في هذا العصر من مثل علي بن أبي بكر الهروي

٦١١هـ- ونجم الدين حسن الرماح المعروف بالأحدب ٦٩٥هـ، ولابن أرنبغا الزردكاش ٨٦٧هـ، ومصنفاتهم في هذا الميدان مطبوعة منشورة تؤكد ما كان للعرب من فضل في مجال علم الحروب، وآلاتها المستخدمة بأنواعها، وهو الأمر الذي يدّل على أن العرب لم يفرطوا في شيء من العلوم باسم دينهم على ما يقرر الدكتور خالد الماغوط في تقديمه للكتاب (الأنيق في المنجانيق).

ثالثًا: عكست العمليات الحربية التي تمت طرد المعتدين أمرين لافتين جدًّا متعانقين معًا وهما:

١- وحدة العالم الإسلامي الذي مكَّن واحدًا كالظاهر بيبرس من أن يتحرك ليقود الجيوش الإسلامية وأصلابها إلى حدود قيسارية والبلسين من بلاد الروم (تركيا) وهو يومئذ ملك مصر على التعيين، وما ينضم إليها من بلدان الشام، وهو الأمر الذي ينبغي أن يُفعَّل في ضوئه ما يسمى باتفاقيات الدفاع المشترك الذي أثمر ثمرات يانعة عندما فُعِّل في الأجواء المعاصرة، وهو ما ينبغي أن يفك الارتباط بينه وبين مخاوف النيل من سيادة كل قطر على أجوائه وحدوده.

٢- الدور المصري الذي لا يصح التغافل عنه أو إهماله لأن منطقة التاريخ والجغرافيا لا يصح أن يُهملا من أجل دعاوى ساقطة بكل المقاييس.

باسم الوحدة الإسلامية، وباسم تعظيم دورِ مصر والالتفاف حولها باسم وعي القيادة التي حكمت مقدراتها قديما تحرير البلدان الإسلامية، واتسع نطاق حدودها، وضمت إليها مدنًا جديدةً.

هكذا نطق التاريخ بحكمه، وما على المعاصرين كلٌّ في موقعه إلا أن يعيد تغذية الإيمان بهذا الذي شهد به التاريخ.

معركة شقحب ٧٠٢هـ

اشتهر الإسلام ببساطة معتقداته وقدرته العجيبة على التسلل إلى جميع الشعوب بطوائفها لمختلفة وألسنتها المتعددة وبيئاتها المتنوعة؛ لأنه استطاع أن يخاطب النفس الإنسانية التي لا تُغيّر بتغير الزمان والمكان. كما استطاع صنعَ بطولات هي في حكم المعجزة ممن آمن به واستقرت أحكامه في نفسه من دون رعاية لموقعه الاجتماعي أو منزلته الطبقية.

كل ذلك صحيح في أحداث هذه المعركة الرمضانية؛ حيث تجلى فيها الدور الحضاري الذي قام بعبئه المجاهدون العلماء يقودهم ابن تيمية مما يُذَكِّر بالدور الرائد الذي لم يغب يومًا عن أفئدة الدعاة والعلماء إلا مع آثار الاستعمار الغربي الذي حاول أن يحصر جهاد العلماء في استنساخ الإسلام من رحم الكهنوت النصراني! يكذب ذلك قيادة تقي الدين ابن تيمية للمعركة ضد جحافل الهمج من التتار!

وفي هذه المعركة لاحظ أمورًا تستحق التأمل منها: أن ابن تيمية كان يحلف بالله للسلطان أن المسلمين منصورون- والأمراء يتلقونه بجملة «قل إن شاء الله» وهو لا يذكرها ثم يكررونها له فيقول «إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا» وهذا الرد يعكس إيمانًا مطلقًا في حسن الظن بالله ووجوب التصريح بذلك بل والصراخ به؛ لأن الله منجز موعوده لمن التف حول رايته ولاسيما في مواجهة عدد همجي وثني يكسر كل شيء أمامه. يقول ابن كثير في البداية والنهاية(١٨/ ٢٧) وفي رابع شهر رمضان من سنة اثنين وسبعمائة دخل الشيخ ابن تيمية ومعه أصحابه، ففرح الناس ودعوا له وهنئوه بما يسر إليه تعالى على يديه من الخير وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أنه يسير إلى السلطان يحثه على السير إلى دمشق فسار إليه وحثه

على التقدم إلى دمشق، ثم سأله السلطان أن يعاونه فكان وجعل يحلف بالله إنكم لمنصورون والأمراء يقولون له: إن شاء الله؛ فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا.

ومن الأمور المهمة في هذه المعركة استلام سيرة النبي ﷺ في شئون الحياة كلها؛ فقد أفتى ابن تيمية الناس بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضًا؛ فكان يدور بين الجنود والأمراء ويأكل شيئًا في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل؛ فيأكل الناس وكان يتأول في الجنود قول النبي ﷺ «إنكم ملاقوا العدو والفطر أقوى لكم» والحديث صحيح أخرجه الإمام مسلم!

وفي هذا الموقف تتجلى معاني القدوة وترتفع معاني العمل الحركي للإسلام والانتصار على فتنة الرضوخ للمشاعر والعواطف وهو أمر يقع فيه كثير من عباد زماننا عندما ينتصرون لعواطفهم وينساقون وراءها من غير تقدير للعواقب أو من غير ترتيب للأولويات إن رد التتار والتقَوِّي على ردهم أبلغ عند الله من صيام في الإمكان قضاء أيامه ولاسيما أن ذلك كان فعل النبي ﷺ في المواقف المماثلة. إن رد التتار الذين عاثوا في الأرض فسادًا وسفكوا دماء طاهرة شرقت الأرض بها وتأذت- أعلى في باب الموازنات من صيام في المستطاع تعويضه!

هذان مثلان استجلبا النصر؛ لأن بهما تحقق رضا الله سبحانه وقد تجلى في المعركة أمور نجملها؛ فما أحوج أيامنا إليها وهي:

١- ضرورة تقديم العلماء واستنصاحهم والاسترشاد بعلمهم، وتقديمهم للجماهير ليعلموها ويربوها على دين الله عز وجل، يظهر ذلك في نصيحة ابن تيمية للسلطان، وحثه إلى عدم العودة إلى مصر والتقدم نحو دمشق صدًّا للتتار.

٢- ضرورة أن يقوم العلماء بواجبهم في الالتحام بالجماهير وقيادتهم فيما يعرض للأمة من خطوب، فيما يمكن أن يسمى بدور النخبة؛ لأن الجماهير تحتاج إلى من يشحذ بالسلوك هممها. إن حركة ابن تيمية وسط الجماهير وحمله السلاح دفاعًا عن الدين وإفطاره أبلغ من مئات الرسائل في هذا الباب؛ فحركة العالم المشهود له بالعلم والتقوى في الناس تؤدي ما لا تؤديه المؤلفات في أوقات عصيبة لا وقت فيها لنشر فتوى أو توزيع بيان!

٣- ضرورة التعود على حسن الظن بالله تعالى، وأن يخالط ذلك القلب يقينًا في نصرته لدينه سبحانه.

٤- المتأمل للموقعة وقد تمت في مكان قرب دمشق على ما تقرر البلدانيات؛ يلحظ قيمة الوحدة الإسلامية حيث تحرك لصد الهجوم التتري المصريون (وفيهم بيبرس) والحلبيون والحمويون.

٥- ومن المهم أن نلحظ هنا عدم اكتفاء الحكماء بما يقدمونه من مداد العلماء مكتفين بترديد المقولة الشهيرة إن مداد العلماء كدماء الشهداء، وهي كلمة حق لا يصح أن تساق على أنها هدية فريدة ولاسيما في زمان تكالب الأعداء على أمتنا، فسيظل الكفاح المسلح هو ذروة أسنام الإسلام من غير إهدار لقيمة الكفاح العلمي ولا يصح تأخير رتبة الجهاد العسكري بحال من الأحوال كما يحدث من بعض الغافلين الذين يجهدون أنفسهم في تأويلات باطلة لمعنى الشهادة والشهداء!

٦- كما عكست وقعة شقحب التي يعد ابن تيمية أحد قوادها العظام أمرًا آخر جديرًا بالتوقف أمامه ملخصه أن السلطان طلب من ابن تيمية أن يلازمه فرفض واستبقى نفسه جنديًّا في جيش الشام؛ معللاً ذلك بأن البقاء بجوار الشاميين أولى وأبر.

وفي هذا الموقف الذي اضطلع به فقيه مجدد في المقام الأول يعكس ردًّا عمليًّا على ما يثار بين الحين والآخر حوله تعارضات دوائر الانتماء. الرجل اختار البقاء بجوار أهله من الشاميين لكن ذلك البقاء كان في النهاية في داخل دائرة الانتماء للإسلام منضويًا تحت رايته. كما يعكس ضرورة النظر إلى أهمية أن يظهر الداعية حرصًا على أهله وقومه؛ استبقاء لأواصر الرحم، ووفاء لحقوق العشيرة وصيانة لعرضه وتاريخه من أي ظن يدور حول تخلفه.

كانت وقعة شقحب الرمضانية واحدة من الأدلة الباهرة على قيمة الوحدة وأثرها الخطير في نهضة الأمة المسلمة وصد عدوان عدوها، سواء كانت وحدة الفكرة أو وحدة الخريطة والمكان. ويظل الجهاد المعانق للعقيدة هو الأمل الوحيد الباقي الذي ينبغي أن نتشبث به ونلح في الاستعداد له.

فتح القرم (رمضان ٨٨٩هـ= ١٤٧٤م)

من آفات العقل العربي والإسلامي المعاصر الوقوع في فخ النسيان، وفي فخ الاختزال، وهو ما أدعو القارئ الكريم إلى التسليم معي به، مما يدعونا إلى أن نقرر أننا في حاجةٍ ماسةٍ إلى التذكر.

أقول هذا من قسوته على مسامع القارئين، وعندي دليل مبدئي موجز هنا على صحة دعواي، وهي أن محمدًا الفاتح يختزل في العقل المسلم إلى فاتح القسطنطينية، وحسبك بهذا فخرًا وشرفًا ومجدًا، لكنه ليس كل الأمر في تقدير وزن الفاتح رضي الله عنه، وهو الأمر الذي يوشك مع تكرار والإلحاح عليه أن يكون مملولًا، مستهانًا به مع استمرار الاحتفاء به وحده معزولًا عن كبريات الإنجازات التي أجراها الله سبحانه وتعالى على يد هذا الفاتح العادل العظيم.

والقرم شبه جزيرة داخلة في نطاق جغرافية روسيا، وهو ما يلفت النظر إلى أن الإسلام امتدَّ سلطانه حتى يسيطر على عدد ضخم من مدن أوروبا من جهة روسيا والمجر وبولندا، وهو ما ينبغي تفهمه في إطار صناعة العلاقات على الجمهوريات الروسية المختلفة، باعتبار أن الإسلام ظلَّ واحدًا من الروافد المهمة التي شكلت ثقافة هذه البلاد حتى مشارف العصر الحديث.

وقد شكلت القرم بما عاش فيها من شعوب أسلمت على أثر فتحها؛ جزءًا من العالم الإسلامي ما يتضح من كِتاب بروكلمان «تاريخ الشعوب الإسلامية».

ومن هذا الذي نذكره من فتح القرم وتحويل شعبها إلى الإسلام بأثر ما وجدوه من عظمة الدين نلاحظ ما يلي:

أولًا: حاجة العقل المعاصر فتح الملف المتعلق بتاريخ الدولة العثمانية، وتصحيح الصور الشائهة التي روَّج لها الغرب بعد صراعه الطويل معها، وخسارته الرهيبة من ضرباتها وفتوحها فما تزال أوروبا المسلمة إن صح هذا التعبير- في ألبانيا وكوسوفا وروسيا وبولندا والمجر وغيرها؛ بعضًا من منح الدولة العثمانية، وهو بعض المفهوم من كتاب المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله لمحمد بن أبي السرور البكري الصديقي.

ثانيًا: ضرورة إعادة النظر في المناهج الدعوية والتربوية المتعاطية مع أعلام الإسلام العظام لتغذية الوجدان الإسلامي المعاصر، بعد أن اتضح أن منجز محمد الفاتح ليس مقصورًا على فتح القسطنطينية على جلال قدر هذا الفتح، وإنما ينبغي أن تجاوزه إلى قراءة المنجز الحضاري والحربي الذي حققه للإسلام لما فتحه من بلدان روسيا وأوروبا معًا، فقد رصد الدكتور سالم الرشيد في كتابه المهم عن المهم عن محمد الفاتح (طبعة الحلبي ١٩٥٦م) له الفتوحات التالية: صربية والبوسنة والهرسك، فتح أثينا والمورة وغيرها.

ثالثًا: ضرورة تقديم نماذج بجوار النماذج الأولى محمد الفاتح وغيره من قيادات العالم الإسلامي المتأخرين لا يصح أن يغيبوا لمصلحة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وغيرهم؛ لأن الإسلام صاحب حضارة ولودٍ منتجة.

رابعًا: تأمُّل تفاصيل فتح القرم والتعامل مع ثقافة التتار المسلمين، وطبيعة الجغرافية والأرض المجاورة للدولة العثمانية، قائدٌ إلى أمور مهمة جدًّا تصب في ضرورة إعادة فتح ملف التعليم في العالم العربي

والإسلامي؛ لأن واحدًا من الأسباب التي عزاها المؤرخون للمقدرة والعبقرية الحربية التي أظهرها محمد الفاتح راجع إلى الثقافة الممتازة التي حصلها محمد الفاتح في نطاق نسق تعليمي متقدم جدًّا، وهو ما يؤكده الدكتور سالم الرشيدي عندما يقرر أن عناية محمد الفاتح بالعلم والعلماء هو السبب الخطير في تقدمه الحربي والحضاري.

خامسًا: برز الإسلام عاملًا مهمًّا في قيادة حركة الفتوحات التي قادها محمد الفاتح وهو الأمر الذي حاول ولم يزل بعض أنصار القومية التركية بعد مد أتاتورك العلماني أن يعزو التقدم العثماني بتفسير خصائص القومية التركية، وهو الأمر الذي يكذبه المؤرخون؛ يقول سالم الرشيدي ص ٢٨٠: «وإذا صح أن يقال إن العرب إنما قامت دولتهم ومجدهم بفضل الإسلام وأنهم ما كانوا ليكونوا شيئًا في التاريخ لولا هذا الدين صح أن يقال إن العثمانيين إنما قامت دولتهم ومجدهم بفضل الإسلام وإنهم ما كانوا ليكونوا شيئًا في التاريخ لولا هذا الدين».

هذا الصوت الأخير هو الأمر المستقر في أدبيات الذين عرفوا تاريخ الدولة العثمانية من قبل محمد عنان ونادية مصطفى والصلابي وعبد الرزاق بركات ومحمد حرب وغيرهم.

باسم الإسلام وباسم الثقافة الإسلامية الممتازة، وباسم التربية على تقدير جلال العلم والعلماء، وامتد سلطان محمد الفاتح فحرر وفتح ما لم يتم فتحه خلال تاريخ ممتد مع توافر المحاولات ليقوم الدليل مجددًا على أن مواهب الله سبحانه وتعالى ليست حكرًا على عصر بعينه، وأن عطاءاته تتنزل دومًا بحسبان الإسلام هو الدين الخاتم.

فتح المجر / موهاكس ٩٢٣هـ

كانت الخلافة العثمانية- الذي يعد عام ٦٩٩هـ =١٢٩٩م التاريخ المعتمد لتأسيس دولتها- نقطة ضوء جديدة بعد الدمار المروع الذي خلفه المغول في تاريخ الجهاد الإسلامي.

فقد استطاعت هذه الدولة أن تقف حائط صد رائع ضد كثير من هجمات الصليبيين وفي فترات القوة والمد استطاع سليمان الأول المعروف بسليمان القانوني ابن سليم الذي تولى الخلافة سنة ٩٢٦هـ =١٥٢٠م وبعد سنة واحدة من توليه قيادة الدولة أن يفتح المجر التي كانت تسمى في الأدبيات الجغرافية القديمة بهنغاريا.

ولا يمكن الادّعاء بأن فتح المجر كان لتأمين الحدود الجغرافية للدولة العثمانية التي استقرت بالقرب من أنقرة في تركيا؛ لأن المجر لم تكن من الدول الحدودية المتاخمة لسلطان العثمانيين مثل أرمينية وجورجيا من الشرق أو أوكرانيا ورومانيا وبلغاريا واليونان من الشمال، وإنما كانت ولم تزل في العمق الأوروبي دونها من الجنوب فواصل ضخمة من مثل سلوفيينا وكرواتيا وصربيا والبوسنة ومقدونيا وألبانيا.

معنى ذلك أن العثمانيين أقاموا دولتهم انتصارًا للمبادئ الإسلامية التي تعلي من شأن الجهاد، وسوف نرى ذلك جليًّا في بعض فتوحاتهم تمثيلًا رائعًا للتحرك بالدعوة الإسلامية وفق النموذج الإسلامي المنصوص عليه في آداب الفتوحات.

وتسمية ما حدث من العثمانيين فيما يتعلق بالمجر فتحًا ليس بدعًا من جانبنا بل هو المعروف في الأدبيات التاريخية الإسلامية يقول الدكتور

شوقي أبو خليل في كتابه أطلس التاريخ العربي والإسلامي ص ٢٣٧ « واستطاع سليمان الأول القانوني فتح المجر»!

ومما يؤكد فقد العثمانيين لآداب الجهاد أن المجر كانت تدفع الجزية لسلاطين العثمانيين وكانت في أمن من التحرك الحربي ضدها؛ لأن الجزية إعلان منها بحرية حركة الإسلام وانتشاره فلما تولى ملك المجر فيلادسلاف الثاني جاجليوس تمرد على كل التعهدات السابقة مع الدولة العثمانية، وقتل رسولها الذي ذهب لتسلم الجزية؛ فكان من الضروري حماية لتاريخ الإسلام، وحفاظًا على من أسلم في هذه البلدان من انقضاض هذا الخائن عليهم- أن تتحرك جيوش سليمان القانوني يؤرخ لهذا الفتح ببداية تحرك جيوش العثمانيين، ودام القتال سنوات عديدة حتى تم النصر في موقعة موهاكس عام ٩٢٣هـ =١٥٢٦م

وقيمة هذا الفتح أن كان ردًّا على خيانة المجر، وتمردهم ومنعهم الجزية، وتعرض كثير من المسلمين لديهم للمخاطر إن تُركوا من غير تجريد حرب لنصرة الإسلام.

أضف إلى ذلك أن أوروبا في هذا التوقيت كانت تموج بحركات التمرد والتحالفات للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها رمز الإسلام على كافة المستويات الأدبية لدرجة أن كبار أدباء أوروبا كانوا يصفون الأتراك بأنهم وثنيون، ويسوون بينهم وبين اليهود في الخسة والدناءة.

ومن أجل ذلك تأتي قيمة النظر إلى هذا الفتح من أنه رد اعتبار قوي لمن يتهمون الخلافة العثمانية بأنها خلافة توسع مادي ويعضدون وجهة نظرهم بأن ثقافة المنطقة- ومنها المغول- تؤكد ذلك وترشح له.

والدليل على أن العثمانيين كانوا على وعي بترتيب الأولويات في تاريخ الدعوة إلى الله سبحانه أنهم قبلوا الجزية زمانًا طويلًا، ولم يفكروا في قتال حربي ضد المجر؛ لأن الأوامر الإسلامية من عهد الفتوحات الأول تقضي بدعوة الفاتحين للبلدان المتوجه إليها إلى الإسلام فإن أَبَوْا فيدعونهم إلى دفع الجزية فإن أَبَوْا آذنوهم بالحرب والقتال.

ودفع الجزية إعلان موافقة بالسماح للمسلمين بالتحرك الآمن لنشر أفكارهم دون قهر أحد عليها، فلما منعت الجزية كان ذلك إعلانًا بتهديد الدعوة؛ فتحركت الجيوش من فورها في أواخر أيام رمضان سنة ٩٢٧هـ.

لقد استمرت راية الجهاد مرفوعة في قلب أوروبا إلى قريب من زماننا أي قبل نحو أربعة قرون فقط وهو الأمر الذي حرَّك أوروبا لاغتيال خلافة المسلمين في تركيا بالتآمر حينًا وبالغفلة أحيانًا وبالدور القذر لليهود كذلك في أحيان أخرى.

ولو قدر للخلافة العثمانية أن تواصل جهادها وحركة فتوحها وتتيقظ لليهود ونصارى الأرمن لكان لخريطة العالم شكل آخر اليوم.

نهاية فرنسا في عكا ١٢١٣ هـ

في كتابه (كفى صمتًا) كتب فيندلي أن كثيرًا من عداوات الغرب الأوروبي والأميركي أججتها الطموحات الاستعمارية لكثير من ساسة الغرب استخدموا فيها المشاعر الدينية وحركوا الحروب الصليبية القديمة والجديدة على السواء والتي لم تتوقف حتى اليوم.

كانت الحملة الفرنسية التي قادها المغامر الفتاك نابليون بونابرت حلقة من حلقات الحرب التي شُنّت على العالم الإسلامي حاملة راية الصليب خداعًا للجماهير الأوروبية، وخيانة للسلام الكنسي الذي لم يتحقق قط وهو ما يقرره مثلًا توماس ماتتناك في كتابه(السلام الصليبي) ص٢٣٤ إن « كل الحروب الصليبية لعبت الجمعيات الدينية فيها دورًا محوريًّا»!

جاء نابليون بونابرت مدعومًا ببرامج تعليمية طالما غذَّت في النفس المسيحية العداوة تجاه المسلمين، وحاول خداع مسلمي مصر الذين تصدوا له في مقاومة رائعة قادتها المؤسسة الدينية الإسلامية ممثلة في الأزهر مدعومًا بمقاومة شعبية يقودها رموز الإسلام وشيوخه من علماء الإسلام في مصر.

وهذا الذي نقوله عن صليبية حملة نابليون يقرره العلامة الكريم الراحل محمود شاكر في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٩٣.

وبعدما خرب في القاهرة وفعل فيها الأفاعيل وفي رمضان سنة ١٢١٣هـ فبراير سنة ١٧٩٩م خرج ليدوخ سورية بقوته، وحاصر عكا ولكن المقاومة التي لقيها هناك اضطرته إلى رفع الحصار عنها بعد أن فقد آلافًا من جيشه.

لقد كانت هزيمته في عكا هزيمة منكرة حققها مجموع أمور عديدة منها:

١- ارتباط المقاومة بالله تعالى والنظر إليها باعتبارها واجبًا وفرضَ عين.

٢- الاستمساك بمفاهيم المرابطة والاتحاد في سبيل الله تعالى والصبرِ على الحصار واستثمار كافة الموارد؛ لتحمل آثار الحصار وهو بعضٌ من آثار روح رمضان بما فيه من صيام.

٣- كما أظهرت هزيمة فرنسا في مصر والشام ضرورةَ بناء وعي بطبيعة العدو الذي تواجهه الأمة، لقد جاء نابليون وحاول استنامة العلماء بضمهم للديوان؛ وأدًا لمفهوم المقاومة وإماتة لثورة الشعب ضد الغازي الخبيث فلم تنْطلِ ألاعيبه، وسقط العلماء الذين ركنوا إليه وباعوا القضية، وهو ما يَؤكد أن كل جهاد من أجل تربية الجماهير، وربطها بالله لا يضيع سدًى. لم ينخدع بسطاء الشعب المصري بقول نابليون الفاجر الكاذب، وما جاء به من مظاهر كاذبة، هذا جانب مهم في تقدير إيمان الجماهير واستثماره في رد أشكال الغزو المعاصرة.

باسم الإسلام طُردت فرنسا وحملة فاجرها الصليبي على مصر والشام وباسم الإسلام قتل كليبر على يد مجاهد مسلم، كانت جنسيته الإسلام ليرد على دعاوى الإقليمية الخبيثة التي تريد أن تحبس شعوب الإسلام خلف حدود صنعها الغزو نفسه بعدما قطع أوصال الإسلام، ولم يزل لقب الشاب الحلبي شاهدًا على وحدة العالم الإسلامي: وحدة أبنائه، ووحدة الدفاع عن قضاياه؛ لأن حماية الشام حماية لمصر، وحماية مصر حماية لجزيرة العرب.

باسم الإسلام رُدت حملات الصليب الماضية وباسمه وحده سترد حملات الصليب القائمة والقادمة.

فتح ميسولونجي (رمضان ١٢٤١هـ= ١٨٢٦م)

من غَيَّب هذا الوجه للامتداد والتقدم الذي أحرزته جيوش مصر الإسلامية، نعم مصر الإسلامية، وفي عصر قريب جدًّا من عصرنا، معدودة في أدبيات التاريخ الحديث والمعاصر ًبأنه جزءٌ من مصر الحديثة، وهو الأمر الذي ينبغي أن يُعاد تأمله في قراءة المنجز الحضاري لدولة محمد علي ولا سيما بعد قدرٍ من التشويه وُجِّه إلى منجز هذه الدولة العلمية بسبب من رفع منجز ما سمي باسم ثورة يوليو ١٩٥٢م.

فميسولونجي أو ميسولونكي واحدةٌ من المدن الكبرى في اليونان، فتحها إبراهيم باشا بعد حصار دام شهورًا، وهو ما قرره بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية»، ص٥٤١ عندما قال: «كانت آخر حصون اليونان هي ميسولونكي التي اضطرت إلى الاستسلام في سنة ١٨٢٦م، بعد حصار دام ستة أشهر».

وهذا الحدث الفذ في التاريخ الإسلامي المعاصر يعكس تساؤلات وعلامات خطيرة لا يصح التغافل عنها هي كما يلي:

أولًا: لا بد أن يكون ظاهرًا أن عمر بناء النهضة ليس أمرًا معجزًا ممتدًا طويلًا، وهو الدرس الأظهر من تأمل دولة مصر الحديثة، ففي أقل من ربع قرن استطاع الجيش المصري المسلم أن يخضع عددًا من الدول والمدن والموانئ الأوروبية للسيادة المصرية، وهو عمر قصير جدًّا شهد بناء صناعة وجيش وتعليم بقدرات ذاتية في المقام الأول.

ثانيًا: ظهر جليًّا العداوة الغربية والأوروبية وتنبهها إلى كل حركات النهضة والتقدم في العالم العربي والإسلامي، وهو الصوت المهم الذي

ينبغي أن يلتفت إليه كل الذين يقاومون ما يسمونه في سخرية وازدراء باسم نظرية المؤامرة، وأعتقد أن ما سطَّرته الأدبيات التاريخية التي أرَّخت لأحداث هذا العصر بما فيها الأدبيات الغربية أن تكتلًا وتجمعًا وتآمرًا غربيًّا واجه تطلعات الدولة العلية، كما قالوا، والحق أن هذه المواجهة التي قادتها أوروبا ضد الجيش المصري المسلم؛ كان أثرًا من آثار ما حدث من الدولة العثمانية من فتوحات، ولاسيما في عصر محمد الفاتح، وهو ما يؤكد أن أوروبا تقرأ تاريخ الإسلام بما هو كلٌّ غير مجزأ، وأنهم يبنون خططهم على أساسٍ من الإفادة من تجارب الفتح الإسلامي خلال تاريخه الطويل.

ثالثًا: أظهرت حركة فتح ميسولونكي على يد الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا شيئًا مهمًّا جدًّا يتعلق بالقوة الظاهرة الحربية البحرية المصرية التي هي ميراثٌ لتاريخ طويل منذ زمن بعيد، وهو ما يبعث على الأقل في إمكان استعادة هذا التمكين بسبب هذا الميراث العظيم للبحرية المصرية في ظل امتداد رائع لحدود البحرية المصرية شرقًا وشمالًا، مضافًا إليها أثر النيل في تنامي هذه القوة، وهو ما يفرض ضرورة العناية بهذا الأمر في برنامج التعليم العالي في مصر.

رابعًا: تجلى من خلال استمرار مدة الحصار الذي ضربه الجيش المصري على ميسولونكي ومن خلال توالي الإمدادات البحرية لاستبقاء قوته أمرٌ مهمٌّ للغاية؛ وهو تقدم المعرفة الإستراتيجية والعسكرية للدولة المصرية.

خامسًا: أظهر هذا الإبحار قيمة الخلافة الإسلامية التي كانت ما تزال قائمةً مع تقدير ضعفها، كما يقال، لكنها وفَّرت إطارًا من الوحدة بين شعوب الخلافةَ الإسلامية مكَّنت الجيش المصري من هذه الحركة، وهو

الأمر الذي يعجزها الآن بعد حركة تفتيت العالم الإسلامي بعد نجاح الغرب في فرض ذلك في أعقاب اتفاقية (سايكس- بيكو) في الثلث الأول من القرن العشرين.

وهو الأمر الذي وعاه جيدًا الغرب فكانت خطته الإستراتيجية الأولى هو: إسقاط الخلافة والحئول دون عودتها في أي شكل من الأشكال، وهو يستدعي عملًا واعيًا وذكيًّا لتحقيق وحدة بين دول عالمنا الإسلامي.

سادسًا: عكس هذا الفتح بُعدًا ما زلنا نلحُّ على خطره، وهو تقديم التاريخ مختزلًا ومبتسرًا وانتقائيًّا.

فما زال أنصار الحركة الوهابية يذكرون لإبراهيم باشا حروبه ضدها، وهو صحيحٌ لكن ينبغي أن يُقرأ في إطار صورةٍ شاملةٍ كليةٍ كانت تُهدد من وجهة نظر أخرى تماسك الخلافة الإسلامية، ولا يصح تقديمها دليلًا على عداوة الدولة المصرية للإسلام في حركته الإصلاحية، فإن تأكَّد ذلك أمكن النظر إليها باعتبارها خطأً يجاور صوابًا متعلقًا بتوسع دولة الخلافة على حساب العالم الغربي؛ طلبًا لتأمين أعمق لبلدان الخلافة في هذا الميدان.

إن فتح ميسولونكي على أعتاب العصر الحديث، وفي عمقه يجدد الأمل في أن إمكان استنهاض همم الشعوب العربية المسلمة أمرٌ ممكنٌ في ظل وقتٍ قصير بشرط استجماع شرائط النهضة، كما ظهرت من هذا الفتح وهي: الوحدة الجامعة لبلدان العالم الإسلامي، واستثمار الثروة البحرية في تنمية الآلة البحرية الإسلامية وتفعيلها، وإعادة بناء الجيوش العربية بقوى ذاتية.

خاتمة

وبعد فهذه تجربة جديدة بعض الشيء في مسلكها ومنحاها ومنهجها الاستلهامي الذي رام قراءة عدد من الفتوحات الإسلامية التي وقعت في شهر رمضان المعظم بدأت من عهد الخلافة الراشدة (معركة الفراض/ وفتح القادسية/ وفتح المسجد الأقصى/ وفتح مصر) وامتدت في عهد الدولة الأموية (فتح شذونة، وفتح السند والهند) ثم الدولة العباسية بمراحلها المختلفة، واستمرت حتى عهد الخلافة العثمانية أي أن هذه القراءات للمعارك المختارة امتد من القرن الأول حتى القرن الثالث عشر الهجريين.

وواجهت هذه الفتوحات دولًا وإمبراطوريات كبرى كالفرس والروم والتتار والصليبيين، وواجهت أصحاب أيديولوجيات وملل وأديان مختلفة، يهودية ونصرانية ووثنية وملحدة. وامتدت على مساحات جغرافية شاسعة آسيوية وإفريقية وأوروبية.

وقد ظهرت من هذه القراءات في هذه الفتوحات مجموعة من النتائج التي تحتاج إلى مواصلة الفحص والتحليل، من مثل:

أولًا: امتداد الفتوحات الإسلامية على طول التاريخ الإسلامي كله من القرن الأول حتى القرن الثالث عشر الهجريين.

ثانيًا: اتساع جغرافية الفتوحات الإسلامية بصورة ظاهرة لتغطي الكرة الأرضية المعمورة تقريبًا.

ثالثًا: تنوع التشكيل البشري المجاهد ليشمل عربًا وعجمًا مسلمين،

وجنسيات وأعراقًا شديدة التنوع، وطبقات متنوعة من العلماء والفقهاء والزهاد وعموم المسلمين.

رابعًا: اتساع عقائد دول الفتوح من ناحية وأفكارها لتشمل أصحاب الديانات السماوية كاليهود والنصارى وأصحاب الأفكار الأخرى كالوثنيين والملاحدة.

خامسًا: ظهر أن المسلمين السنيين هم الذين حافظوا على راية الجهاد والفتوحات في مواجهة أعداء الأمة، ولم يظهر في هذه الفتوحات أي جهد شيعي!

سادسًا: يمثل منهج الاستلهام والاستثمار في قراءة الفتوحات الإسلامية أهمية كبرى في ظل طبيعة المرحلة الراهنة التي تمر بها الأمة، وحاجة الأجيال المعاصرة لتحليل هذه الفتوحات واستنباط الأصول والقواعد الثابتة المعبرة عن التصور الإسلامي للوجود.

إنني حريص- فيما اخترت من فتوحات الإسلام التي وقعت في الشهر الكريم- أن أسوق نموذجًا يمكن أن يجد فيه القارئ المعاصر نوعًا من المحفزات والمشجعات على إعادة تقويم هذه المرحلة الراهنة على مقياس ما كان من أجدادنا المجاهدين العظام.

الفهرس